رواية

رأس الكَرْكَدَن

محمد آدم

تويا

مكتبة
الحبر الإلكتروني
@bookkn

رواية

راس الكركدن

Head of Rhinoceros

محمد ادم

مكتبة الحبر الإلكتروني
مكتبة العرب الحصرية

عنوان الكتاب: رأسُ الكَرْكَدَنّ

المؤلف: محمد آدم

تدقيق لغوي وتحرير أدبي:
د. إيمان الدواخلي

الإخراج الداخلي: رشا عبدالله

تصميم الغلاف: إسلام مجاهد

رقم الإيداع: ٢٧١٨٣ / ٢٠١٨

ردمك : 978-977-6549-99-9

الطبعة الأولى: ديسمبر 2018

رئيس مجلس الإدارة: شريف الليثي

دار تويا للنشر والتوزيع

dartoya2015@gmail.com

دار تويا للنشر و التوزيع Dar.toya

@Dar_Toya

Dar.toya

(+2) 01202222098

٣٥ شارع النصر - المعادي - القاهرة - مصر

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للدار

رأسُ الكَرْكَدَنّ

Head of Rhinoceros

محمد آدم

إهداء

إلى روح الخلوق

الإعلامي كابتن: محمد السباعي

رحمكَ الله رحمة واسعة وأسكنكَ فسيح جنّاته

"لتعيش لحظات بعيدة عن مواجهة الواقع؛ فكل ما يتوجَّب عليك
فعله في الحياة أن تشتّت نفسك، الكثير من الواقع لا يُمكن احتماله،
والتفكير في كيفية الهروب منه أمرٌ بالغ الكآبة".

وُودي آلِن

1

اليوم السابع والعشرون

بحشرجةٍ متقطّعة خرج صوتي، بعدما تمكّنَت مني الجرعة العلاجية. شعرتُ بالإنهاك التام، ولم أستطع فتح عينيّ من شدة الألم. تجمّدتُ على سريري كالمومياء. رأيتُ مَن حولي أطيافًا، صورتهم المزدوجة الباهتة ظلّت تتأرجح أمامي، ولم أستطع تمييز أشكالهم.

تعامد العقرب الذهبي الكبير المزركش عند الرمز اللاتيني (XII) مع العقرب الصغير الأُفقيّ المذهَّب عند الرمز (IX)، وانطلقَت دقّات الساعة، العتيقة الطراز المستديرة مزركشة الحواف النحاسية، وذات الأربع دوائر الصغيرة القرمزية الموزّعة بدقة عند الجهات الأربع على حوافها، التي عُلّقت عالية في منتصف الحائط، السُكّري لون طلائه، الذي يقسم الغرفة نصفين.

تسع دقّات كاملة، تعلن تمام التاسعة مساء. قبض الطبيب على يدي بقوة، وقال بثقة:

- ستكون بخير.
- أتعتقد ذلك؟
- بالطبع.
- لا أعتقد ذلك.. فأنا مريضٌ جدًا.

- ستكون بخير.

صرختُ منفعلًا:

- لن أكون بخير، سأموت.

فعنّفني:

- اهدأ، ستكون بخير.

صرختُ في وجهه:

- أنا مريض، ولسوف أموت. حُبستُ بتهمة لا معنى لها، ولمدة شهر لم يعرف أبي عنّي شيئًا. كعادته، منهمكٌ في عمله أو في أي شيء سوانا، ينسى حتّى نفسه. أُصبتُ بالمرض في محبسي، ولم يكترث أحد بي. خرجتُ في الوقت الضائع، وهأنذا ألفظ آخر أنفاسي ولا أحد ينفعني بشيء.

- اهدأ.. دعني أساعدك قليلًا، وأحقنكَ بمهدئ يلطف كل هذا التوتر الذي يزعجك.

قبض على ذراعيّ بقوّة، في نفس اللحظة التي انحرف فيها العقرب الكبير قليلًا نحو الرمز اللاتيني (I) ليعلن عن اللحظة الأصعب: التاسعة وخمس دقائق. جحظَت عيناي، وأخذتُ أنتفض ممتنعًا عن أخذ الحقنة المهدئة. دفعتُه بقوّة لم يكن يتوقعها من جسد هلهله المرض الخبيث، فسقطت السرنجة منه أرضًا. انقضّ عليّ الممرضَان، وأمسكا بذراعيّ باحترافية، بينما توجّه الطبيب إلى المنضدة أسفل النافذة. تبعتُه بناظريّ لا إراديًا حيث توقّف، فإذ بها إلى جواره تظهر، كوميضٍ انبعث من العدم في ليلة صيفية حالكة الظلام.

قوامها متناسق، وزيّها ناصع البياض كقطعة من الثلج تساقطت لتغمر شجرة صنوبر وسط غابة قاتمة، تقف ممسكة بأمبول مادة (Neuril). طرقَت الحقنة بإصبعها المرمريّ طرقات رقيقة، لتُفرغها من فقاعات الهواء بداخلها، التي ارتفعَت لأعلى. ضغطَت المكبس، حتى أصبح السائل مستعدًا للخروج بشكل مستقيم من جوف الإبرة. تخطّت الطبيب، وتقدّمَت نحوي بثقة. تبسّمَت لي وثغرها يشع بالنور، فأجبرني نورها على إغلاق عيني، واستسلمتُ لها، فقط هي دون غيرها.

بلطف أمسكَت ذراعي، وفتحَت غطاء "الكانويلا" المثبتة بجلدي، وأخذت تحقنني ببطء، بينما أنا على حالي أردد في قرارة نفسي "أبي كان عربيدًا". ثوانٍ قليلة، وسرى مفعول المهدئ في جسدي، وازداد ثقله على الفراش. لحظات، وهدأ تمامًا، وبدأَت غفوتي.

***

نَعيق الغراب.. والليلة القارسة البرودة..

وخزة قاسية عميقة، بلا رحمة تَنْخَر الرأس!

على هدف واحد يجتمعون.. أحانت ساعتي؟

***

فارقتُ الحياة في بلد غريب، وكان لزامًا على أهلي الاختيار بين دفني في المقابر المسموح بدفن الأغراب فيها، أو نقل جثماني إلى بلادي. أصرّت أمي على الاختيار الثاني. أنا وحيد هذه المسكينة، انتظرَتني سبعة أعوام حتى أنجَبَتني؛ فكيف ترضى لجسدي الغربة في أرض باردة، في بلاد ليس لنا فيها شيء! كان لها ما أرادت.. أتذكر جنازتي تمامًا، بكل تفاصيلها. كل أصدقائي المُقرّبون، وغير المقربين، وزملائي المخلصون، وغير المخلصين حضروا دون تغيُّب. حملوا صورتي قبل المرض، ورأيتُ دموعهم جميعًا بلا استثناء، وسمعتُهم ينتحبون، والصدمة تكسو وجوههم.

لكن ما من نحيب أقسى من نحيب الأم. لم تتوقف أمي عن البكاء لحظة منذ بداية الحكاية، وانكسرت تمامًا حين وطأَت أقدامنا لندن. أما أبي، فعجزتُ عن تقييم حالته.. جبين قاطب، ملامح جامدة.. أحزين على فراقي وقد بُهتَ من هول المفاجأة؟! تناقض كبير بين غموضه وحزن أمي البيّن. الأغرب من هذا كله هو وجوده من الأساس!

وارى جسدي التراب، وانفضّ الجمع إلّا أمي، التي خرّت على ركبتيها تصرخ وتهيل التراب على رأسها، وتهذي بالدعاء على "من كان السبب"، بينما أبي جامد كتمثال، معلّقة عينه صوب اللوحة الرُّخامية التي حُفر عليها اسمي. كان مضحكًا، وجعلني أتساءل لماذا يبدو مصدومًا.. أتراه تذكّر الآن أنّ له ابنًا كم اشتاق لعناقه طوال تسعة عشر عامًا؟!

أبي كان عربيدًا، شغوفًا بالنساء، ملولًا يتنقّل من تلك إلى أخرى، ومن أخرى إلى أخريات. تبدّل حال عمله ولاقى نجاحات خيالية قفزَت به فجأة إلى سلّم الأثرياء، فالتفّت حول عنقه متع الحياة. دنت النساء منه عامدات، فاستقبلهن بترحاب المشتهي. لم تهنأ أمي أبدًا بالعيش معه، وذهبَت الخمر بعقله. خسر عمله وأُسرته.. أهمل أُمي وأهملني. ولم يستمر زهوه، فانفضّت عاهراته من حوله، وحتى أصدقاؤه تركوه، وهوى من السلّم فجأة كما قفز إليه فجأة.

من يصدق أن هذا الرجل المتجمد أمام شاهد قبري هو من كنتُ في الكثير من الأحيان أشتاق لعِناقه، فيمنعني متأففًا، ويبعدني عنه؟ كبرت، واعتدتُ على ذلك، وتكيّفتُ على العيش دون أب، كما اعتاد هو العيش دون ابن أو زوجة، أو بيت، أو حتّى قلب.

وسقط السيراف في لندن. سقوطه لم يكن في الخطيئة بالطبع. سقط لأجلي، أو بالأحرى، هبط لأجلي. سيرافٌ واحد يكفي لإحيائي مرة أخرى، قبّلني قُبلة الحياة. لا أهتم إن كان هذا بأمر السماء أم لا، ولن أكترث. وُلدتُ يومئذ من جديد.. بل بُعثتُ.

2

اليوم الثامن والعشرون

أيّها المبجَّل، لا تذرني لنفسي. أَرِنِي علامة تنتشلني من براثن الغضب المستعر، واعذرني على وقاحة جلستي، فالجلوس لا يجوز في حضرتك.. ولكنّني مريض، وليس على المريض حرج.

يقتلني الشوق تقتيلًا لعناقه مرة أخرى.. مرة واحدة كفيلة بإزاحة الهمّ عن روحي. أحنّ إلى خشونة يديه، ولا أنسى أبدًا تلك التشقّقات الغائرة بقسوة في قدميه. عظيم بكل تفاصيله: تجاعيده، رائحته الفوّاحة بالعرق، سمرة بشرته التي صبغَتها الشمس.. أعظم العظماء قاطبة.

نعيقٌ رهيب مزعج اخترق العالم، أخذ يدوّي صارخًا دون انقطاع. معه تفاعلَت التكّات وتراقص البندول متأرجحًا جيئة وذهابًا، تراقصه المستفز ضاعف توتّري. تهادت الكلمات إلى مسامعي:

"قريبًا، وحيدًا، غريبًا، تلحق بي!"

تعالت الأصوات وتصاعدَت، اختلطَت الأنّات بالهسيس وتداخَلَت.. ثم حل فجأة سكونٌ مريب!

صخبٌ هادر اجتاح الصمت المقيت. طرقات "ميولنير" أرعَدَت بالهزيم مدوّية في كل الأرجاء، واشتعلَت السماء تبرق بوميض الطرقات المبجَّلَة، ثم أرسل المُبجَّل رسوله فنقر زجاج نافذتي بمنقاره. لم يدُم الأمر كثيرًا، حتى بسط جناحيه وأقلع ذاهبًا. كبحتُ جماح نفسي، ومنعتُها من التعبير عن فرحتها مؤقتًا.

سمع المبجَّل تضرعي، فأمر "ثُور" بالطرق ردًا عليّ، فاستجمعتُ قواي واستطعتُ بصعوبة النهوض من الفراش. كالماشي على قدميه لأوّل مرّة، أخذ مني الوقت مأخذه، حتى وصلتُ النافذة. فتحتُها بنفس صعوبة نهوضي من الفراش. لفحني الصقيع، فأغمضتُ عيني مستقبِلًا قطرات المطر المرتطمة بوجهي. لتلك القطرات قدسيّة لن يستشعرها سواي. أجابني المبجَّل وابنه.. آهٍ وألف ألف آه.. يا لهناء روحي.

بنفس إيقاع الخطوات، وبنفس التوقيت عدتُ إلى فراشي. استلقيتُ عليه متنفسًا الصعداء، تدثرتُ بالفرحة، أقصد بالغطاء، ورُحتُ في النوم.

***

طرقاتٌ مزعجة أخذتني من نومي العميق. نظرتُ إلى ساعة الحائط.. بالكاد أرى عقاربها تجاوزَت منتصف الليل، وصوت بندولها كأنه يرفص داخل رأسي. أهذه بالفعل طرقات أم تهيؤات؟ ليست أضغاث أحلام، فأنا يقظٌ بالفعل. مرت لحظات ولا شيء هناك، فحاولتُ العودة للنوم، لكن الطرقات مجددًا لم تسمح لي بذلك. اعتدلتُ جالسًا، أنصت وأنتظر. هل أنزل عن سريري لأرى من هو، أم لن يعود، وعليَّ أن أخلد إلى النوم؟ من ذا الذي يجرؤ على طرق الباب في مثل هذا الوقت من الليل؟!

عاودَت الطرقات دق بابي.. تسع طرقات.. أعتقد أنّ هذا عدد كفيل بإثبات أنّي لا أتخيل. قمتُ من مكاني أجر قدمي، حتى وصلت إلى الباب وفتحته.. وكما حدست، لم أجد أحدًا. أطللتُ برأسي لأستكشف الرواق.. فرأيت عند البقعة المضيئة في نهايته ظلًّا ساكنًا، لا يسعني تمييز أية ملامح له من هذه المسافة. نسيت القول إني -فوق كل ما أنا فيه- مصاب بعشى النظر الليليّ.

كان عليَّ الذهاب إليه بنفسي إن أردت تبيُّن ملامحه. اقتربتُ منه، فظل جامدًا في مكانه، أشعر به ينظر إليّ مباشرة. بدأت أتوتر وشكله يتضح لي أكثر.. أصلع الرأس تمامًا، عيناه محمرّتان بلون الدم، أو بالأحرى هناك ثقبان في وجه هذا الجسد الشبحيّ يقطران الدم!

رغم توتري، لم أجد في نفسي خوفًا حقيقيًا يمنعني أن أتقدم منه أكثر. لكنني حين وصلت إليه، اختفى من أمامي تمامًا، بلا ترك أي أثر يدل أنه كان موجودًا حقًّا!

انتفت المواجهة، فانفتح الباب للخوف يدخل قلبي، واجتاحت أطرافي رعشات قوية. كبحت وابل من الأسئلة الميتافيزيقية المتقافزة من عقلي، وعدتُ أدراجي إلى غرفتي، وأغلقتُ بابي بإحكام. واجهتُ صعوبة بالغة في التنفس، وشعورًا رهيبًا بالإنهاك. حدثت نفسي أن لا شيء يمكنه أن يخيف ميت. أنا في الحقيقة شبه ميت، فليس هناك أي معنى لخوفي من أي شيء. قررت أن عاصفة الرعشة ستزول، آخذة معها موجة التوتر التي اعترتني، فور انتهائي من شرب قدح الماء الموضوع إلى جوار فراشي؛ شكرًا لمن وضعته هنا. شربت، واستلقيتُ، وسحبتُ الغطاء حتى منبتِ شعري. أنصتُّ جيدًا، ولم يكن هناك المزيد من الطرقات. تناولت سدادات الأذن التي منحوني إياها يوم فحصوني بالرنين المغناطيسي، ووضعتها في أذني. أعتقد أن الهدوء تصالح معي، وعاد إليَ مرة أخرى مؤقتًا. هيا أيّها النوم، تعال تعال، بسرعة أرجوك. النوم هو الحل.. لحظات رتيبة، أحاول التنفس العميق، وأعد الأرقام بإيقاع بطيء. ثم... بدأت أخيرًا بالتثاؤب، وثقل جفناي.. شكرًا جزيلًا أيها النوم.

3

اليوم التاسع والعشرون

- في رأيكَ، ما الحل لعظيم مشكلاتكم التي تواجهونها؟

سألني البريطاني باستياء ملحوظ، فأجبتُه:

- الصبر هو البديل التقليدي لمن هم قليلو الحيلة كأمثالنا. إنّ الجيل السابق يترنّح تمامًا، فلقد استنفذوا أخيرًا كل محاولاتهم. سيتساقطون قريبًا جدًا -بلا شك- في شرار أعمالهم، وعن كثب سنرقبهم الساقط تلو الآخر، حتى لا يظَلّ منهم منتظر لَم تبتلعه الهاوية. عندها، لن ننال نصيبنا في إدارة الأمور.

سألني، وعيناه تدققان النظر في وجهي:

- كيف، وقد خلَت الساحة لكم!

أجبتُه:

- على العكس من قولكَ تمامًا. لقد استنفد المستنفدون الفسدة جميع محاولاتنا نحن أيضًا، ولذا فإن الجيل الذي يلينا لن يثق بنا، وكيف لنا أن نطلب ثقته وقد خذلناه بتركنا السالفين يأخذون نصيبنا أمام أعيننا، ونحن نتابع بصمت الحملان، تاركين إفسادهم يعم كل شيء.

- أنتَ مَن تقول ذلك؟!

لحظتئذ، كنتُ قد أشعلتُ سيجاري، ونفثتُ الدخان بقوّة صوب وجهه الأبيض المحمر، كطابع معظم الأوجه البريطانية التي ألتقيها ههنا. أكثر من مرة نبهني بأدبه البارد أن هذا فعل غير مقبول، ثم لجأ لكلمة أخرى: "غير مهذب"، لكنني فعلتها، وراقبت وجهه الجامد لحظة، ثم قلت:

- يا عزيزي، ليس هناك إلّا زورق واحد للنجاة، وليس من حقنا أن نقترب منه. سنغرق مع الغارقين، شئنا أم أبينا. هذا أقل ما يجب علينا تقديمه للجيل الذي يلينا. ها، أفهمتَ قصدي الآن يا ابن الضباب؟

أخذ يدوّن بسرعة ما أقول في مذكّرته، ثم طرح سؤاله:

- أنت إذن تعي جيدًا مدى التأخر الذي يبدو مظلمًا للغاية. هل لديك فكرة عن أسباب كل هذا التأخّر؟

مرة أخرى نفثتُ الدخان بأسف، لكن هذه المرة بكثافة وقوّة أكبر، ومرة أخرى ظل وجهه جامدًا. استفزني جموده، لكنني لم أعلق، وأجبتُ:

- تأخرنا، ولا زلنا نتأخر، ولسوف نتأخر ونتأخر، ثم نتأخر فنتأخر؛ حتى تذرونا رياح الجهل، فنعلم عندئذ أننا لن نتقدم إلّا إذا تركنا كل إنسان وشأنه. لن أدع أنفي يشمّ إلّا رائحة حسائي.

اعتقَدَ أنني قد انتهيتُ، لكن قبل أن يتفوّه أشرتُ له أن يتريث، فصَمَتَ. نفثتُ دخاني نحو السقف هذه المرة، وأكملتُ:

- أما أسباب تأخّرنا عنكم، يا أبناء بلاد الصقيع، فهي أنّ كل شرقي منا يعتقد أنّه موسوعة تمشي على قدمين، ولديه دار الإفتاء الخاصة به في تلك الغرفة الضيّقة الملاصقة لحمّام الحديقة الملحقة بمنزل العائلة ذات الحسب والنسب.. لو أننا احترمنا تخصّصاتنا دون التدخّل في شئون الآخرين.. لو تركنا كل واحد يقوم بعمله كما ينبغي.. لصارت بلادنا قبلة للحضارة.

لاحت لي ابتسامة على وجهه، رغم أن قسماته الجامدة لم تتغير. تمتم:

- أبناء الضباب، وأبناء الصقيع.. نعم هذه حقيقة.

استطرد:

- تتفاخرون دومًا بمناخكم.. بماضيكم وحضارتكم العتيقة. لكن الوضع الراهن جد مدعاة للشفقة. قل لي، متى تظن أن تلحق بلادكم ببلادنا؟

رددت متهكّمًا:

- لقد أخبرتُكَ بالفعل منذ لحظات.

رشفتُ رشفة من قدح القهوة الذي برد. كان عقلي يعصف ببعضه بعضا، بين عارف بالحقيقة وثائر على الحقيقة. أكملتُ:

- أتدري يا هذا متى نلحق بكم؟ عندما نتوقّف عن الثرثرة فنرتقي، أو تبدؤون أنتم في الثرثرة.

هذه المرة أعلنت ابتسامته عن نفسها بوضوح، لكنني لم أدعه يهنأ بها، وأسرعت أكمل:

- في حقبة بعيدة كنا في المقدمة، لكنكم الآن تسبقوننا بعقود. قد تُبدِّل الأقدار الأمور، فيرتد إلى الأعمى البصر، ويفقد المبصر النظر. دوام الحال محال أيها البريطاني. قبل ثانيتين كنتَ تضحك، والآن يقتلك القلق وتفكّر في الأمر مليًّا. نصيحة من ابن البلاد الدافئة، لا تأخذ من الإجابات ما تريد سماعه فحسب.

أخذتُ أضحك بصوت مرتفع، بينما هو قد ابتلع لسانه. أستمتع بهذا النوع من الإفحام، ولم أتردد في القيام بحركتي المفضّلَة: نفثتُ دخاني في وجهه. سَعَل وهو يقول:

- إنه المال.

قطبت جبيني..

- أتقصد المال الذي نملكه؟ أم الذي لا تملكونه. الشرقيون يا عزيزي يملكون جبالًا من المال، لن تستطيع تغيير طابعٍ واحد من طباعهم السيئة، وكأنهم يصرّون على التأخّر.

- إذن فالمال ليس كل شيء؟

كان عليّ إفحامه مرة أخرى..

- أحيانًا. لا تصدق أولئك الحمقى الذين يقولون هذه العبارة بالتحديد. هم يقولون ذلك لأنّهم يملكونه، فتبًا لهم. أما أمثالنا، فهم ثراة من دون المال. في أيامنا السوداء هذه، المال أحيانًا هو كل شيء، بل كل كل شيء، فتبًا للمال، وتبًا لكل شيء.

ثم أطلقتُ سحابة من الدخان نحوه، فازداد سعاله، وتراجع، وابتلع رضابه وتلعثم:

- لماذا تدخن هذا النوع من السيجار تحديدًا؟

أجبرتني طباعه الأوروبية الماكرة على الابتسام. نظرتُ إليه مباشرة:

- لماذا لا تلقي سؤالكَ بصيغته الصحيحة؟

بابتسامة خبيثة تنم عن وصوله لمراده:

- أيّة صيغة سيدي؟

- "لماذا تنفث دخان سيجاركَ في وجهي هكذا؟".. أليس هذا ما تود قوله؟ في بلادي، كنتُ أُدخن كالمبتدئين، فإذا نفد مني التبغ لم أكن أتردد في سؤال أصدقائي. حتى جلستُ ذات مرة مع أحد أصحابي المقربين، وكان رسّامًا لا تعانده فرشاة، وأفضل مَن رسمني على الإطلاق. نعم، كثيرون رسموني، أنا أحب ذلك. وقتئذ، كنتُ أدخن نوعًا محليًا رديئًا، فكانت نصيحته "إذا أردتَ أن تدخّن، دخّن كما يجب، وإلّا فلا". قدم لي هذا النوع، ودخّناه يومها معًا، فاستحسنتُ مذاقه كثيرًا، ولن أستبدله بتاتًا، حتى إذا مِتُّ أموت برئتين سوداوين لنوع تبغ واحد، وبصحة جيدة نسبيًا.

بهدوئه المستفز سألني:

- هذا لا يجيب على السؤال: لماذا تنفث الدخان في وجهي؟!

نظرت إليه في سخرية..

- أنتَ لم تسألني هذا السؤال. وأنا أجبتُكَ على سؤالكَ. لنعُد إلى موضوع حوارنا.

بدا عليه الإحراج، لكنه تماسك بسرعة وسأل:

- سيدي، قلت إن سبب تخلف بلادكم هو الفساد. فما هي أسباب فساد مجتمعاتكم؟

أجبتُ بثقة:

- كلنا فاسدون. أنا فاسدٌ، ولا أُنكر فسادي. أيضًا أنتَ فاسد. أنا فاسدٌ ساذج، وأنتَ فاسدٌ ماكر. مجتمعاتكم تحوّلَت إلى كروبيم ساقطين ونشروا الفساد في الأرض بدهاء، لإعلاء مصلحتكم، فتبنّيناه منبهرين واتخذناه منهاجًا. فقط في هذه الحالة دون غيرها يمكننا القول: "لقد تفوّق التلميذ على مُعلّمه"، لقد تفوقنا عليكم في الفساد، الذي هو من بنات أفكاركم أنتم؛ أتفخرون بنا الآن؟

يا لبراعتي في الإفحام. تركتُه ينتهي من تدوينه، وتأهّبتُ للسؤال التالي:

- سيدي، بم تنصحني كي أطوّر من نفسي؟

لم أتوقّع أن يكون سؤاله بهذه البساطة. لقد استطاع مفاجأتي. تريثت قليلًا، ثم قلت له:

- الثقة عزيزي. ثق بأنكَ أنتَ القادم، والتزم البساطة في الأسلوب، ولا تتحذلق في اختيار المرادفات، وانتق أسهل المصطلحات. احترم فكرتكَ، قلمكَ، أوراقك، يحترمكَ من يقرأ لكَ. اِقبل النقد تكسب من نقدكَ، وارفض المقارنات كي لا تخسر نفسكَ. اقرأ للكل وفي الكل ولا تتخّذ لك مثلًا أعلى، حتى لا تغلق سقف طموحك. لا تتعجّل الكتابة، ولا تؤجّلها. لا تصفّق لأنظمة، ولا تتحيّز لأفراد، ولا تجامل من الناس أحدًا. لا تبتعد عن الأضواء فتختفي، ولا تقترب منها فتحترق، كن في تلك الردهة الآمنة التي تسمح لكَ بالعودة أدراجكَ، أو المضي قدمًا إذا سنحَت لك الفرصة أن تكون بمأمن. عندئذ فقط تصبح كاتبًا ناجحًا بحق. إذا أردتَ أن تحيا أبدًا بعد الممات، اكتب ولا تكترث بغير القلم والوُريقات، من الروعة أن تكون مؤثرًا، لكن الأروع امتداد تأثيركَ.

قال وقد اعترته الدهشة:

- هذه أجمل إجابة في حوارنا كله. من أين أتيت بهذه الكلمات، بحق السماء؟

ابتسمتُ وأنا أنفث دخان سيجاري في المطلق، وقلتُ له:

- ألم يخبركَ أحدهم عن "مستر هوبنز"؟

- بلى، الجميع يتحدثون عنه. أتيتُ لمقابلته، لكنهم نصحوني بلقائكَ أولًا، لأنكَ أعلم الناس به.

- مممم، ألم تره من قبل؟
- لا لم أتشرف بلقائه بعد.
- سيسعد بلقائكَ كثيرًا.

4

صباح اليوم الثلاثين

مُتّكِئٌ على جانبي الأيمن، أدفن وجهي بعمق في الوسادة، باعدتُ بين جفنيّ المثقلين بالإرهاق، وتسرّبَت اليقظة إلى عقلي ببطء. تفاصيل صغيرة بدأَت تتكوّن.. انحناءات الوسادة أمام عينيّ، كتاب مقلوب على صفحاته المفتوحة، لم أنتهِ من قراءته بالأمس. لوحة علّقتُها على الحائط فوق رأسي -تبرز من يمينها رأس كركدن حزين، يقف فوقها غراب حالِك السواد بزاوية جانبية، يغرس مخالبه في جبهته، والدماء تسيل حتى فمه- رغم تعاسة اللوحة ووخز الإبرات في ذراعي؛ يطغى عليّ شعور غريب بالسعادة! تنتشر في الغرفة رائحة عطر هو مصدرها. أعرف هذا العطر.. أُميّز منه رائحة الليمون النفّاذة، وسحر الياسمين. انتشلني من عالم الوخزات، وحلّق بي نحو السماوات، فانتابني نشاط وهمّة، مدفوعان بحماس البحث عن مصدر العطر.

- صباح الخير.. أأنتَ بخير الآن؟

أتاني الصوت يحمل رائحة الياسمين في العطر، فأسرعَت عيناي في طريق البحث، مهتدية بعذوبة الصوت. عند زاوية الغرفة، تقف "إليزابيث" في ثوبها الأبيض، وابتسامة مشرقة تعلو وجهها. ومن يكون غيرها مصدر العطر! ابتسمتُ مجيبًا:

- في حضرتكِ أكون أكثر من بخير.. مولاتي.

ضاقت حدقتيها وهي تنظر نحوي بابتسامتها الساحرة:

- مولاتي!

قالتها بطريقة مبهمة، قبل أن تستدرك:

- أعتقد أنكَ واجهتَ ليلة عصيبة بالأمس.

- بالفعل؟

- أنا أيضًا عانيتُ بالأمس. أعياني البحث كثيرًا.

- ومع هذا يعلو وجهكِ كل هذا السحر!

ابتسمَت وهي تشيح بوجهها بعيدًا عني لتقع عيناها على الكتاب إلى جواري.

- "ابن صانع القفافيز"! عنوان غريب! لم أقرأه من قبل، مَن كاتبه؟

أدركتُ محاولتها الهروب وتغيير مجرى الحديث، فجاريتُها:

- أتعرفين "شكسپير"؟

- ومَن منا لا يعرف "شكسپير"؟

- أنتِ.. كلكم.

- عفوًا!

- عذرًا مولاتي.. جلالتكِ تعتقدين أنكِ تعرفينه. "شكسپير" العظيم الملهم، صاحب الروايات العظيمة، الحقيقة أنتِ لا تعرفين عنه شيئًا.

- حقًا؟!

- حقًا. هل تعرفين "هوپنز"؟ "چيمس هوپنز".

هزّت كتفيها نافية، فأكملتُ:

- يا لهوپنز المسكين! كان يستحق من جلالتكِ المعرفة.

بدا على ملامحها أنها قد راقها حديثي، وسألتني بشغف:

- مَن "هوپنز"؟ وما علاقته بشكسپير؟ ولماذا يهمّك أمره إلى هذه الدرجة؟

قالتها وهي تتحرك ناحيتي، فحاولتُ النهوض، لكنني لم أقوَ على ذلك. وضعَت يدها على كتفي وقالت مبتسمة:

- ليس عليكَ النهوض، فأنتَ لم تشفَ بعد.

- عذرًا مولاتي، ولكن يتوجّب عليّ الوقوف في حضرتكِ.. اعذريني على وقاحتي.

- عن أية وقاحة تتحدث؟ هوّن عليكَ.. يمكنكَ أن تكون على راحتكَ.

- أشكركِ مولاتي.

- لا داع للشكر.

- أشكركِ.

- ممم، حسنًا.. أأنتَ بخير الآن؟

- تحسّنتُ كثيرًا في حضرتكِ مولاتي.

دَنَت أكثر، ومر ذراعها أمام وجهي لتتناول الكتاب الملقى إلى جواري، فنفذ عطرها إلى روحي، للحظات أخذني إلى عالم غير العالم. تناولَت الكتاب وجلسَت على الكرسي قبالتي، ووضعَت ساقها البلّورية على الأخرى.

- ما سبب إصابتكَ؟

سألَتني وهي تقلّب بأصابعها صفحات الكتاب، أجبتُها:

- مشاجرة.

- مشاجرة!

- نعم.. مشاجرة أدّت بي إلى إغماءة طويلة.

- لا يبدو عليك أنكَ من النوع الذى يميل للشجار.. ربما مشاجرة أدبية تقصد؟

تنهدتُ محبَطًا قبل قولي:

- ربما.

ألقت "إليزابيث" نظرة على غلاف الكتاب قبل أن تسأل:

- مَن ابن صانع القفافيز هذا؟

- "وليم شكسبير".

- يا إلهي! "وليم شكسبير" مرة أخرى؟!

- نعم هو.

لمحَت "إليزابيث" شيئًا بين صفحات الكتاب، فغلبَتها ضحكة حاولَت كتمانها، وما استطاعت، فأخذَت تضحك دون توقف. حقيقة تملّك الحزن مني، وفاضت عيناي بالدموع. لاحظَت ذلك، فامتنعَت عن الضحك..

- آسفة.. لم أقصد إهانتكَ.

حاولت تغيير الحزن الذي اعتراني، فاستطردت تغيّر الموضوع:

- ولكن لمَ أنتَ حانق إلى هذه الدرجة على عبقري كشكسبير؟

بجبين مقطّب نظرتُ نحوها قائلًا:

- ليس بعبقري.. فهو لص يسرق إبداعات الآخرين، وينسبها إلى نفسه.

- أووووه.. أنتَ تتحدّث بجديّة.

- ولمَ لا؛ فأنا محق فيما أقول.

- حقًا؟

- نعم جلالتكِ.

وضعَت "إليزابيث" الكتاب على الكرسي، بعدما قامت وجلسَت على حافة السرير، مسحَت برفقٍ على قدمي، وقالت:

- لا أقصد التشكيك، ولكن لنفترض أنكَ على حق.. ما دليلكَ على صحة قولكَ؟

ابتسمتُ قائلًا:

- كيف لابن صانع القفافيز، الذي بدأ كخادمٍ وضيع في المسرح، أن يكتب تلك الأعمال العظيمة، التي لا يستطيع إلّا نبيل ذو تعليم رفيع كتابتها؟!

تمكّنَت الحيرة منها، فأكملتُ:

- "استراتفورد" جلالتكِ تشتهر بالتجارة وتوزيع الأغنام.. وتُعرف بأنّها راكدة ثقافيًا تنقصها البيئة اللازمة لرعاية أي عبقري. كل الأدلة تثبت أنّه جاهل نشأ بمنزلٍ أميّ.. لقد وقّع صانع القفافيز وزوجته ابنة الطبقة المحلية بالختم على وثيقة الزواج.

ابتسمَت وقالت مدافعة عن "شكسبير":

- لكن أعماله العظيمة التي كتبها تثبت عكس قولكَ.

ضحكتُ واستطردتُ:

- عن أية أعمال عظيمة تتحدثين جلالتكِ؟! أعماله الحميمية التي على دراية غير منطقية بالبلاط الملكي؟! من أين له بكل تلك المعرفة؟! تلك الأعمال لا يستطيع كتابتها إلّا شخص من داخل القصر نفسه. ليست هناك وثيقة أو مخطوطة أدبية واحدة أو خطابًا شخصيًا واحدًا كتبه المدعو "شكسبير".. وهذا أكبر دليل على جهله.. كانت بدايته كخادمٍ وضيع في المسرح فكيف له بهذه الأحاسيس الأرستقراطية الجياشة؟ ومِن أين أتت تلك الألفة بينه وبين البلاط الملكي التي طغت على معظم الأعمال العظيمة المنسوبة إليه؟!

نهضَت ولا تزال تتساءل في حيرة:

- ومن ذاك الذي يرضى على نفسه أن يكتب عملًا يُنسَب لشخص آخر؟ وما مصلحته في ذلك؟

- تعرفين جلالتكِ أن أي نبيل له علاقة بالبلاط الملكي يعرّض نفسه للمخاطرة إذا كتب مثل تلك الأعمال التي يُحرّمها القصر.. فبطبيعة الحال عليه أن يستخدم اسمًا مستعارًا لينوء بنفسه عن مثل تلك التهمة.. وبذلك التزم بالميثاق الاجتماعي ولم يعرّض مكانته للخطر.. وفي نفس الوقت كتب ما يريد باسم آخر.

- تتكلّم بثقة مفرطة عزيزي.

- مولاتي.. لقد استخدم الأرستقراطيون أمثال "أوكسفورد" و"ديربي" أسماءً مستعارة لنفس السبب.. وهذا الأمر معروف للجميع داخل البلاط وخارجه.

- وما علاقة "شكسبير" بالأمر؟

- المدعو "شكسبير" مجرد واجهة لإخفاء الاسم الحقيقي للكاتب الأصلي، أو بالأحرى الكُتّاب الحقيقيين الذين كتبوا تلك الأعمال ونُسبَت له.. سواءً كان برضاه أو لا.. لقد حصد الشهرة والمال.. وكل اهتماماته تنصب بين شيئين لا ثالث لهما.. العاهرات والخمر.. ويجد ما يرجو في الحانات المنتشرة بلندن.

- أذكر أنكَ ذكرتَ لي اسمًا منذ قليل.

- "هوپنز".

- نعم، ما علاقته بالأمر؟

أخذتُ نفسًا عميقًا، وزفرتُ طويلًا لأزيح سرًا جاثمًا فوق صدري لسنوات، ثم أجبتُها مبتسمًا بحزن:

- على الكاتب الذي يريد النجاح والشهرة أن ينضم إلى عصبة أدبية، توفّر له ذلك عن طريق الاختلاط.. ولا مستقر لهم إلّا الحانات التي تنضح بالمومسات وضحكاتهن الرقيعة.. وشرابهم الخمر الذي تسقيهم إياهن.. ولكل كاتب ملهمته سواءً كانت عاهرة أو نبيلة. انضم "هوپنز" إلى

عصبة "توماس كيد" وكان منها اللص "شكسبير". ذات ليلة اصطحب "كيد" "هوبنز" إلى حانة بوسط لندن.. حين وصولهم كانت العصبة قد ذهبَت الخمر بعقولهم.. والعاهرات الجالسات على أرجلهم تسيقنهم الخمر.. وصل اللص قبلهم بقليل، ولم يكن قد شرب ما يذهب بعقله.. عرّفه "توماس" بهم، وطلب منه أن يتلو عليهم فكرة قصته الأخيرة التي أشاد بها.. عند الاستماع لها، لم يكن مهتمًا في أوّل الأمر.. ولكن ما إن وصلَ إلى الحبكة ترك الكأس من يده وأصغى باهتمام.. وفي النهاية، أشاد بها ونصحه ألّا يتعجل في إنهائها، حتى ينتهوا من روايتهم التي تعرض على المسرح. وفى أثناء ذلك، طلب منه أن يحضر الأوراق التي كتبها كي يستطيع أن يبدي رأيه فيها بشكل أفضل.

- وهل عمل "هوبنز" بنصيحته؟

تنهدتُ زافرًا قبل جوابي.

- لم يكن على "هوبنز" الاستماع لتلك النصيحة الماكرة.

- لمَ؟

- لم تكن حقًا بدافع النصح.

- كانت بدافع السرقة إذًا.

- للأسف.. هذا ما اكتشفه "هوبنز" فيما بعد.

- أيّة رواية ؟

- روميو وچولييت.

شهقَت "إليزابيث" وارتسمت على ملامحها صدمة ممزوجة بالدهشة.

- ماذا؟!

- كتبها "هوبنز".. عاشها بكل تفاصيلها.. بأحاسيسها وأشجانها وآلامها.. فقد حبيبته بنفس الطريقة المأساوية.. كل كلمة كُتبت أَخذت من روحه شيئًا.. من أيامه.. ومشاعره.

شعرَت "إليزابيث" بصدمة قوية، تجمّدَت في مكانها، لم تستطع التحدث، بينما استطردتُ، متأثرًا بكل كلمة تخرج من فمي:

- بينما تلقى الرواية نجاحًا منقطع النظير على المسرح.. يعاني "هوپنز" مرارة السرقة والصدمة والألم. أعرف أنّ جلالتكِ لا تصدقين ما أقول.. لكنّها الحقيقة.. "هوپنز" هو من يستحق كل هذا النجاح لا ابن صانع القفافيز.. اللص.. الجاهل.. الصعلوك.

انتابتني نوبة بكاءٍ عارمة، جعلتني أفقد قواي، فألقيتُ برأسي على الوسادة دون إرادة مني، أمسكَت "إليزابيث" بذراعي وحقنتني بالمهدئ، وتركتني بعدما سرى مفعوله وتلاشَت صورتها أمامي شيئًا فشيئًا، وأخذني النعاس.

- أتفهّم غضبكَ من "شكسپير" وسرقاته كما أخبرتني، ولكن لما أنتَ حزين كل هذا الحزن لأجل "هوپنز"؟!

أخذتُ نفسًا عميقًا وزفرتُ طويلًا .....

5

اليوم الحادي والثلاثون

على أفرع "يغديراسيل" العتيقة، شنق "أودين" نفسه، حتى يحصل على الأسرار المقدسة وكامل المعرفة، وطعن جنبه برمحه، وعانى من الجوع والعطش، وفي الأخير تخلّى عن إحدى عينيه عند ينبوع "ميمِر"، ثم شَرِبَ شربة من مائه المُطَهّر ليحصد أسرار الحكمة. بعدئذ جلس على عرشه في "أسغارد" يراقب كامل العوالم التسعة، تأتيه أخبارها على أجنحة غُرابَيْه، وبين الحين والآخر يزور "ڤالهالا" ذات الخَمسمئة وأربعين بابًا، من كل باب يمر ثمانمئة محارب من المقتولين في المعارك التي خاضوها باسمه، وبحرارة يرحّب بهم تقديرًا لموتهم كأبطال، ويذبح على شرفهم الخنزير البريّ الضخم، ويأكلون من لحمه حتى الشبع، ثم يُبعث من جديد كل مساء، ويملأون قرون الشراب بالخمر المنهمرة من ضرع الماعز العملاقة، ويشربون حتى الثمالة.

***

بمجرد أن رأتني، أطلَقَت صرخة مدوّية انفطر لها قلبي. أفزعتها الدماء -رغم اعتيادها عليها بطبيعة عملها- أو ربما ما أفزعها هو رؤيتها إيّاي مقلوبًا رأسًا على عقب، معلقًا في السقف من قدمي.

دقت الجرس المجاور للفراش تطلب المساعدة، ثم صعدَت مسرعة إلى سريري، وحاولَت جاهدة أن ترفعني للأعلى، كي يرتخي الحبل على قدمي. صرخت بي لتخليص قدميّ من الحلقة، ولكنني لم أكن أشعر بهما، وقد أصابهما الخدل. صرخَت ثانية، وهي تستند بذراعيها إلى الحائط كي يحتمل ظهرها ثقلي، فلأجلها -وفقط لأجلها- بذلت أقصى جهدي لاتخاذ القرار، وباعدت قدمي،

فانفكت الحلقة قليلًا، فصرخت بي وهي تلهث ألا أفكها تمامًا وأن أشد قدميَّ داخل الحلقة المتسعة كي لا أسقط. أخذت رأسي على صدرها، ودعمت رقبتي بكفيها، ثم هتفت بي أن أسحب قدمي، ففعلت، وسقطنا معًا على السرير.

صرَخَت مرة أخرى، عندما رأَت القلم الذي طُعن به جنبي، والدماء التي تسيل من الجرح. لمسَتْه، فصرخت من شدة الألم. صرخَت بدورها تسبني وقد فقدت سيطرتها على انفعالها تمامًا، وفي هذه اللحظة فتح باب الغرفة، ورأى الداخل ما يحدث، فخرج ثانية يصرخ بمن بالخارج أن يستدعوا فريقًا للطوارئ. في أثناء ذلك، كانت هي قد تفحصت جنبي، والقلم المغروس في عجلة، وأخذت تتمتم أنه بعيد عن محتويات جسدي، وأنه يمكنها.... لم تكمل.. صرختُ بقوة مع ألم انتزاعها إياه من لحمي فجأة. كوَّرَت ما طالته من قماش الملاءة وضغطت به الثقب النازف في جنبي، حتى تمنع سيل المزيد من الدماء من جسدي الهزيل. وضعَت ذراعي حول عنقها أتكئ عليها، مستمتعًا بكل ما تفعله لأجلي.

كان الفريق الطبي قد وصل، واختفت هي في زحامهم، فأغمضت عيني ولم أعبأ بما صار لي بين أيديهم. لم أنتبه إلّا وأنا في فراشي، يغالبني النعاس، وقد جلسَت أميرتي قبالتي على الكرسي جاحظة العينين، غاضبة. بمجرد أن لمحتني أفتح عينيَّ، سألتني وهي تضغط كل كلمة:

- من.. فعل.. بكَ.. ذلك؟

نظرتُ إليها ولم أتفوّه بشيء، فعاودَت سؤالها بنبرة أشد غضبًا وانفعالًا:

- مَن الفاعل؟

لم أجبها، فصرخَت فيّ:

- ألا تسمعني؟

تأملتها للحظة، ثم أجبت في هدوء:

- أسمعكِ.

- أجبني إذن.. مَن الفاعل؟

- لا أحد.

فتحَت فاها، ولكنها لم تنطق بشيء، مرت لحظات عيناها تتأملني في حيرة، ثم زفرت وقالت بصوت أهدأ:

- ماذا تعني بلا أحد؟

- أي لا أحد فعل بي ذلك.

- إذن من علّقكَ من قدميكَ في السقف ليحتقن مخك؟ وطعنكَ بالقلم في جنبك، وتركك تنزف؟

- أنا.

قطبت جبينها وبدت حائرة تكاد تبكي وهي تسألني مختنقة بالكلمات:

- ماذا تقصد بأنا؟

- أنا الفاعل.

- أنتَ!

- نعم أنا.

بحدة تتناسب طرديًا مع القلق الذي عاشته، أو بالأحرى الذي وضعتُها فيه قبل دقائق، قالت:

- مَن يُردْ الانتحار عليه أن يتعلّق من عنقه لا من قدميه.

- لم أكن أريد الانتحار.

- ماذا كنتَ تفعل إذن؟

- كنتُ أتضرع.

- تتضرّع!

ابتسمتُ وأنا أجيب بصوت هادئ:

- نعم أتضرّع.

لم أفهم كلمة واحدة من سيل جارف من الكلمات العجيبة الغريبة على مسامعي، التي أعتقد أنها بذيئة. عجيب أمر هؤلاء السكسونيين! لا يستوعبون طقوسنا التعبّدية، هم أبعد ما يكون المرء عن السماء. وأخيرًا تفوّهَت بشيء أفهمه:

- تتضرّع بهذه الطريقة المقززة؟!

- بغضّ النظر عن كلمة مقززة، نعم.

- كيف تعتبر هذا تضرّعًا؟

أغمضتُ عيني لثوان، وأخذتُ نفسًا عميقًا... رفعتُ رأسي للسماء، وشهقتُ شهقة عالية، تبعتها بالصمت للحظات، ثم فتحتُ عيني ونظرتُ إليها مباشرة:

- طَعَنَ المُبجَّل "أودين" جنبه برمحه "غونغنير"، ثم علّق نفسه من قدميه على أفرع "يغديراسيل" العظيمة. ظَلّ على حاله طيلة تسعة أيام، أقرب إلى الموت منه إلى الحياة.

متعجّبة تساءَلَت:

- ولماذا بنفسه يفعل هذا؟!

- على كل منّا أن يدفع ثمن الحصول على الحكمة، فهي ليست مجّانية.

- وحصل عليها؟

كاد الفضول يقتل الحسناء السكسونية. أجبتُها:

- عندما كانت رأسه لأسفل، أمعن النظر في القاع المظلم، حتى تكشّفَت أمامه أسرار الحكمة، فصرخ المُبجَّل صرخة فرح عظيمة.

- وماذا حدث؟

- مممم.. ولأن الحصول على الحكمة ليس بهذه السهولة؛ فلا يقتصر على تكشّف الأسرار وحسب. كان هناك شيئًا منقوصًا.

- ما هو؟

- عليه أن يشرب من ينبوع الحكمة حتّى يرتوي بأسرارها كافة.

- وما الذي منعه؟

- "ميمِر" الحكيم، حارس ينبوع الحكمة.

- ولماذا منعه؟

- عليه أن يُقدّم شيئًا ثمينًا في مقابل شربة واحدة.

- وماذا قدّم؟

- تخلّى المُبَجّل عن إحدى عينيه، ثم شرب شربة واحدة من الينبوع، ليرتوي بأسرار الحكمة. لكل شيء ثمن عزيزتي.

نهضَت عن كرسيها منفعلة:

- وتريد أن تحذو حذو مبجّلكم فتقتل نفسكَ؟! لا أستوعب أنكَ قد وصَلتَ إلى هذا الحد من الجنون! أنتَ لم تكن تتضرّع، أنتَ كنتَ تنتحر أيُّها المجنون.

نظرتُ صوب النافذة التي ارتطمَت بها قطرات المطر. شعرتُ بابتسامتي تتّسع:

- عزيزتي السكسونية..

التفتَت إليّ وهي لا تزال منفعلة دون خروج كلمة واحدة مِن فمها. قلتُ بثقة:

- بفعلتكِ الشنيعة هذه لن تفلتي من عقاب السماء. أعتقد أنكِ أغضبتِها وبشدة.

قطّبَت جبينها وهي تهزّ رأسها:

- ما الذي تتحدث عنه؟

- أتسمعين تلك الأصوات بالخارج؟

- اها.. إنها تمطر.

- لا أقصد الأمطار. أقصد الرعد.

- هذا طبيعي لأنها تمطر.

- لا عزيزتي، هذا صوت "ميولنير".

- لا هذا صوت الرعد.

- "ميولنير".

- الرعد.

- "ميولنير".

- وما الميولنير هذا؟

- مطرقة المبجّل "ثُور".

- أووه، لا، يا إلهي، هذا كثير، كثير.

جلسَت على كرسيها مرة أخرى. قلتُ لها بصوت هادئ:

- أنا حقًا أشفق عليكِ.

نظرَت إليّ وقد ضاقَت ذرعًا:

- لماذا؟

- لقد أغضبتِ السماء، وها هو المبجّل يعبّر عن غضبه.

- هراء.

- بل إنكِ انتهكتِ حرمة تضرعي، وهذا أغضب السماء. أتمنّى أن تعفو عنكِ.

رفعَت سبّابتها في وجهي وفتحَت فمها.. صمتَت برهة ثم قالت:

- أريد أن أعرف ماذا حدث بالتفصيل قبل أن أدخل وأجدكَ بهذا الشكل المريب.

لم يسعني إلّا أن أجيبها. في الحقيقة، كان يسعدني ذلك. أصابت منها الدهشة ما أصابت، وأخذَت مع كل كلمة تبرّق عينيها، حتى كادتا تسقطان أمامي.

"جاء رسول المبجّل إليّ، يحمل في منقاره الطويل الحاد يمامة بيضاء. وضعها على سفح نافذتي. نعق، ثم نقر على الزجاج ثلاث نقرات، فجذب انتباهي. نهضتُ عن فراشي أسير إليه غير مصدق أن هذا يحدث. قبل أن أفتح زجاج النافذة، حلّق مبتعدًا.. للأسف لم ينتظرني. تابعته للحظة بعيني، لكن سرعان ما تحوّلت لليمامة، فقبضت عليها بكفيَّ، قبل أن تستفيق وتهرب. صرختُ إليه والفرحة تعتريني وأنا أصيح: "بلّغ المبجَّل خالص امتناني"، أغلقتُ النافذة، وانتظرتُ على حالي أحملها بين يدي، حتى استفاقت. كانت مستسلمة لمصيرها الذي أُمِرت بالخضوع له. بنصل القلم ذبحتُها، وقرّبتُها للمبجَّل قربانًا. لطّختُ وجهي وأنحاء جسمي بدمائها القليلة. لا تمتعضي، كل ما في الأمر اختلاف ثقافات. أنا فعلت ما فعلت سعيدًا، كما تجري العادة في عشيرتي، نتوارثها عن أسلافنا، ويتوجّب علينا الحفاظ على كنز تراثهم، دون تلاعب أو تحريف، حتى إذا ما أتى الحين والتقيناهم، كنا مرفوعي الرؤوس لا مطرقينها.

تنهدت وأكملت:

بنفس القلم طعنتُ جنبي. كان هذا أصعب كثيرًا من ذبح اليمامة. مرة وأخرى حاولت مخلصًا، حتى استطعت أخيرًا أن أسيل دمي غزيرًا. لو لم يهن دمي على نفسي لأجل القُربى، لما قُبلَ قرباني. بعد ذلك، لم يكن صعبًا أن أجد كيفية لتعليق نفسي من قدمي كما رأيتِ، مستغلًّا تجهيزاتكم الطبية للغرفة. ثم بدأت أتضرّع للمبجَّل. لن تفهمي أبدًا كيف كان إحساسي، حين لمحت رسوله يعود تارة أخرى إلى نافذتي، يراقبني ليسجل ما فعلتُ تفصيلًا، ليعرضه على سيده. سيعرف مبجّلنا أنّني عانيتُ كثيرًا، متأسّيًا بمعاناته. لكنك دخلتِ، أزعجتِ الرسول، فحلّق بعيدًا".

صمتُّ لدقيقة كاملة أنتظر أن تتفوّه بأية كلمة، ولكن لم تتفوّه فقلتُ مبتسمًا:

- ربما لأنه لا يعرفكِ جيدًا يا أميرتي.

أغلقَت عيناها، وتنهّدَت تكتم غيظها. قبل انفجارها بسيل من الكلمات، باغتُها:

- المُعَلّمُ الأقدم بإمكانه التعرّف على أوجه البشر. ليس هذا فحسب، بل يعرف الجيدين منهم والسيئين.

بنبرة اليائس ممن يحدثه قالت:

- لا أدري إلى أيّة يابسة من يابسات الجنون قد رسَت سفينتكَ! لا أقدر على قول شيء، لكن يتوجّب عليكَ شكري لأنني وصلتُ في الوقت المناسب قبل أن يُفقدكَ هذا المبجل حياتك.

ضحكت حتى القهقهة، وراقبتني منزعجة، حتى أجبرتُ نفسي على التوقف، وقلتُ لها:

- لا تسخري من عادات قومي، عسى أن تكون هناك عادات سكسونية تجبرنا على السقوط أرضًا من فرطِ الضحك.

احمر وجهها غضبًا، وقالت متلعثمة:

- علينا الانتهاء من هذا الحوار فورًا.

نظرتُ إليها متفقّدًا شيئًا في وجهها، سألتُها:

- أهذه كدمات؟

وضعَت يدها على وجهها وأشاحت به بعيدًا، ثم قالت بجديّة:

- إنها التاسعة، موعد المهدئ.

تنهّدتُ، وأخذتُ وضعية النوم ومددتُ لها ذراعي، وقلتُ مستسلمًا:

- تفضلي.

6

اليوم الثاني والثلاثون

باريس - قبل سبعة أعوام

منتصف الليل

لم يكترث "وحيد" بهطول الأمطار الغزيرة على الأرضية الأسفلتية، ولا بزمجرة الرعد الشديدة، ولا بالصقيع الذي أفرغ الشوارع الپاريسية من البشر، ولا بملابسه التي لا تصلح للخروج حتى من غرفة النوم في مثل هذا الطقس.. ولا بأكتاف تلك الفتاة الثلاثينية التي يتكئ عليها وهي لا تحتمل!

فجأة توقّف، وأخذ ينفث دخان سيجاره الكوبيّ، وقد أحاط نفسه بهالة من اللا مبالاة. ابتسم متهكمًا وهو يتحدث إلى نفسه، غير مكترث بالفتاة، كمجنون يقف وحيدًا على خشبة المسرح، يُلقي بمونولوج رتيب طويل أمام جماهير قد أصابها الملل:

- الفرنسية والعربية والهندية والأمريكية والنيچيرية والبرازيلية والإنجليزية والصينية والأفغانية والإسپانية.. و.. و.. ولا يهم.. كلهنّ في الظلمات سواء.. هُن لن يرتضين بشيء حتى إذا سافرتَ إلى المريخ وقطفتَ زهرة مريخية وأعطيتها لواحدة منهن لأي سبب.. ستسألكَ بكل غباء: "بأية مناسبة تعطينيها؟".. لكنني لن أتردد في الإجابة: "بمناسبة أنّ أمكِ قد أنجبَت أغبى النساء".

لا زالت الأمطار تتساقط بغزارة.. والفتاة لا زالت تنتظر.. و"وحيد" دخل في نوبة ضحك هيستيرية، ويخطو مثني الركبتين في دائرة تتسع، ويضرب فخذيه بكفيه وضحكه يعلو أكثر وأكثر.

توجهَت الفتاة نحوه، وأعادت وضع ذراعه حول عنقها، هو يترنح، وهي تحاول أن تتمالك نفسها وتواصل به المسير.

بالكاد وصلا إلى سيارته عند نهاية الشارع. أخرج المفاتيح، وحاول فتح الباب، فأخذَتها منه وهي تهز برأسها رافضة. أخذَته إلى الجهة الأخرى من السيارة، وأجلسته، ثم أسرعت لتركب من الباب الآخر لتتولّى القيادة. أضواء السيارات القادمة والذاهبة لم تكن كثيرة، والشوارع خاوية، والسحب تملأ السماء، والبرق الشديد قد بدأ يضربها ليفرّقها عن بعضها، فكأن السماء تفتح فمها لتبتلع الناظرين. أسند "وحيد" رأسه إلى الكرسي، وأدارَت الفتاة المحرك، وانطلقَت به إلى منزله.

حين وصلا، كانت الأمطار قد توقفت، والأسفلت الزلق يلمع وقد سكنت فوقه برك صغيرة من المياه. اتكأ عليها، لا يقوى على فتح عينيه. لم يكن فتح عينيه ليصنع فرقًا كبيرًا، فالظلام خيّم على المكان وكادت الرؤية تنعدم. حاولت الفتاة فتح الباب، وأعادت الكَرّة بمفتاح آخر، والباب يصر ألَّا ينفتح. تململت وهي تحاول مرة ثالثة، وهو يستند إليها لا يحاول التماسك وتخفيف ثقله عنها. أخيرًا فُتح الباب، في اللحظة التي كادت فيها تنزعه عن كتفها، وتتخلص من عبئه. دخلا، ولم تعبأ بترك الباب مفتوحًا، وساعدته أن يجلس على أقرب كرسي بأقصى ما استطاعت من رفق لم يزل بإمكانها. كان لسانه ثقيلًا، وهو في حالة مزرية من السُكر، تكاد معها كلماته لا تُفهم..

- أشعلي الضوء.

كانت الإضاءة خافتة، لكنها تمكّنهما من الرؤية والتحرك في المكان. ولكنها أطاعته، وبحثت عن زر الإضاءة، وضغطته. أنارت الثريا المكان، ليتضح الأثاث الفاخر للبيت. أدهشها جمال المنزل، فأطلقت صفيرًا قويًا، قطعته فجأة عندما نظرَت إلى الدرج، حيث تقف سيّدة بالكاد أتمّت عقدها الثالث. بغض النظر عن الغضب الذي يخيّم على ملامحها، كانت رائعة كعارضة أزياء تتفجّر منها الأنوثة والأناقة معًا. تحركت السيدة، وفي يدها سيجارة ملونة رفيعة طويلة، وبثقة وهوادة نزلت عن الدرج متجهة نحوهما. تابعتها الفتاة وتوترها يزداد مع كل خطوة تقترب بها السيدة منهما. وكان قلقها في محلّه تمامًا.. فمع وصولها لمتناول يدها، دفعتها السيدة الحسناء بقوة نحو الباب، وهي ترسم على وجهها ابتسامة صفراء، تخفي وراءها آلاف السبات واللعنات، وقالت ولا تكاد تفتح شفتيها:

- ميرسي.

ثم بعنفوان صكت الباب، غير مكترثة للفتاة التي سقطَت أرضًا.

اسمها "غازيتا"، كانت تعمل مخرجة كليبات، تعرّفَت على "وحيد" في "پاريس"، وتوقفت عن العمل عندما تزوّجَت به، دون عِلم زوجته الأولى. رغم جلوسه على الكرسي، كان يترنح ولا يستطيع بأي حال الثبات في مكانه. توقفَت "غازيتا" أمامه مباشرة، وعقدَت ذراعيها تحت نهديها البرونزِيّيَن البارزين من ثوبها، فزادتهما بروزًا، وقالت حانقة:

- إلى متى ستظل عربيدًا؟ متى تتوقّف عن السهر والسُكر؟ وكل ليلة تقوم عاهرة مختلفة بتوصيلك إلى المنزل؛ لماذا تقبل هذه الغانية المتفجرة الأنوثة كمُهرة غجرية رجلًا ضائعًا مثلك؟!

بابتسامة جانبية تساءل "وحيد":

- حقًا؟ كانت جميلة لهذه الدرجة؟

- حتى هذا لا تدركه! أين عثرتَ عليها؟

- لم أعثر عليها، بل.. بل.. بل هي التي عثرَت عليّ. على كلٍ لا أتذكر كيف كان شكلها؛ خسارة.

صرخت:

- طلّقني.

- شششش، توقفي عن هذا الهراء.

- أنا لا أمزح. هذه المرة لن أتنازل عن الطلاق.

- كفى، هذه آخر مرة، أعدكِ، أرجوكِ دعيني أنام.

قالت، معنّفته:

- في كل مرة تقول نفس الكلام، وكعادتكَ لا تنفّذ وعدًا، ألف مرة أقول لكَ لا تعد بشيء لن تفي به .

رمقَته "غازيتا" بنظرة، لو كانت لحجر لتفتّت. لكن "وحيد" لا يقوى على فتح عينيه، لم يرَ تلك النظرة، ولم تكن لتحرك فيه ساكنًا، فقد اعتادها عبر أيام عشرتهما المليئة بنفس النظرات والكلمات واللوم الطويل. تركَته، وصعدَت الدرج بعصبية، محاولة التماسك. هو الآخر -محاولًا ألّا يسقط- تبعها متشبثًا بسور الدرج الحديدي، وهو يهذي بكلمات بلا معنى.

عندما وصل إلى الغرفة، كانت تحتضن ابنتها وهي تبكي. هز رأسه ومط شفتيه ممتعضًا من نفسه، ثم تقدم نحوهما مترنحًا. ركع أرضًا ومد يده ليتحسّس شعر الصغيرة، فلم تسمح له "غازيتا" بذلك، وأعطته ظهرها تمنعه من الوصول إلى صغيرتها.

- لا تلمسنا.

- أعدكِ يا "غازيتا"، ستكون هذه آخر مرة.

- قلتُ لكَ آلاف المرات لا تعد بشيء لن تستطع الوفاء به.

- بل أعدكِ.. علاقتي بالعربدة انتهَت منذ هذه اللحظة. فقط لا تلقي بحب سبعة آلاف عام؛ أم نسيتِ ذلك؟ ألستِ أنتِ التي كنتِ تقولينها؟ الحب الذي بيننا عمره سبعة آلاف عام، أنتَ أجمل شيء في حياتي على الإطلاق.. أليس هذا كلامكِ لي؟

- كنتُ. أحببتُكَ منذ اللحظة التي رأيتُك بها، ووافقتُ على الزواج منكَ دون تفكير، على الرغم من زواجكَ. هنا كان خطئي الذي أدفع ثمنه الآن. لو أنني عرفت عنك أكثر قبل أن نتزوج، ربما لم أكن... للأسف، كنت مبهورة بك، وأعشقك، والنتيجة أن مرحلة التعارف التي كان يُفترض أن تسبق الزواج بدأتها بعده، أهناك غباء أكثر من ذلك؟!

أطلق ضحكة رتيبة متقطعة قائلًا:

- في الحقيقة لا. لكنّني كنتُ أكثر منكِ جنونًا. تركتُ كل شيء خلفي، واخترتُكِ. أحبكِ جدًا غازيتا، أقسم بالحب الذي بيننا هذه آخر مرة.

نظرَت إليه في ضيق واضح، والدموع تنهمر من عينيها العسليتين، بينما عيناه اللتان بالكاد يستطيع فتحهما تتوسلان..

- غازيتا حبيبتي، أقسمتُ عليكِ بحياة ابنتنا.

- هذه ليست ابنتنا، هذه ابنتي أنا. أنتَ لستَ في وعيكَ، متى تفيق!

- ليست ابنتنا! ابنة من إذن؟

- ابنتي من زوجي الأوّل أيها السكّير.

- حقًا؟!

***

على فراشهما أعطى كل منهما ظهره للآخر. ظلت "غازيتا" مستيقظة، تتململ في الفراش، وألف فكرة تسيطر عليها، بينما "وحيد" يغطّ في سباتٍ عميق. التفتت إليه، وربتت على كتفه بحنان، وقرّبَت رأسها من أذنه. قالت بصوت هادئ لا يخلو من الجدية:

- وحيد، أتعدني أنها ستكون المرة الأخيرة؟

استفاق بصعوبة وقال متثائبًا:

- طبعًا، طبعًا حبيبتي، أعدك.

التفت إليها ببطء، وجذبها إلى صدره بقوّة، فانكمشت في حضنه كما قطيطة ترتعش.

***

كان ما بين الحادثة السابقة وتلك الساعة مجرد يومين. فتح "وحيد" الباب وهو يضحك في هيستيريا ويستند إلى غانية جديدة. انتظرتهما "غازيتا" جالسة في مواجهة الباب، تضع ساقًا على ساق، وتدخن سيجارتها بشراهة، والشرر يتطاير من عينيها. أصدرت أمرها بحزم وبرود، بالفرنسية:

- دعيه واغربي عن وجهي.

ابتسمَت الفتاة لها معتقدة أنها تشكرها، ثم قبّلَت "وحيد" على خده وهي تقول في غنج:

- أشكركَ أيها اللذيذ، كانت ليلة لم أقض مثلها من قبل.

رمقت العاهرة الزوجة المغتاظة، واتسعت ابتسامتها، وخرجت تتمايل، وجذبت الباب لتغلقه.. ثم عادت تفتحه قليلًا لترسل إلى "وحيد" قبلة في الهواء، ثم أغلقت الباب وهي تطلق ضحكة انتصار عالية. تابعتها "غازيتا" حتى اختفت، ثم قالت بهدوء، دون تنظر نحوه:

- لم يعد لك رأي في الأمر يا وحيد. لقد اتخذت قراري النهائي هذه المرة.. طلّقني.

رفعت عينيها إلى زوجها، الذي علا شخيره، ولم يسمع منها شيئًا. قامت من مكانها مندفعة نحوه، وضربته في كتفه، وهي تصرخ فيه:

- طلّقني.. هل تسمع؟ طلقني، أنا أكرهك أيها الفاشل، فلا أمر يرجى في ضائع مثلك..

استفاق بصعوبة وقال متثائبًا:

- أأنتِ متأكدة مما تقولين؟

- متأكدة أيها السكّير النسوانجي.

نهض عن كرسيه يترنح، وهو يقول بحروف مبعثرة:

- أعتقد أنّه من الأفضل ألّا أبيتُ الليلة معكِ على فراش واحد، حتى نخرج بأقل الخسائر الممكنة.

تحرك نحو غرفة الضيافة، يجر رجليه جرًّا، فالتقطت "غازيتا" مزهرية كريستالية صغيرة، يعشقها "وحيد"، فألقتها وراءه، وكادت ترتطم بظهره. وقف مكانه مذهولًا للحظة، دون أن يلتفت إليها. صرخت فيه:

- أيها النذل، لا أريد رؤية وجهكَ مرة أخرى، ودع مومساتكَ ينفعنكَ.

بدأ يتحرك ثانية، وهو يشير بذراعيه، ويردد:

- حسنا يا صغيرتي.. حسنا، اهدئي يا صغيرة.

ظلت ترمقه والغيظ يأكلها، وانهارت تبكي، بينما دخل هو إلى الغرفة، وارتمى مباشرة على الأريكة يغط في نوم عميق.

***

أتت الشمس بالدفء والحياة في الصباح التالي. امتلأت الشوارع بخلق كثيرين، يملؤون اليوم نشاطًا وضجيجًا، وينشغلون ويضحكون ويحزنون، ولا يقف أحد في نفس المكان الذي كان فيه قبل الليل الذي ذهب. أمَّا "وحيد"، فقد خرج من منزله غاضبًا، واتجه إلى سيارته، ففتح بابها، ورمى الأوراق الموجودة على المقعد إلى الأريكة الخلفية إلى جوار اللاب توب والتابلت، ثم ركب السيارة وأغلق بابها بعنف. ألقى بمحموله على المقعد المجاور له، وظل أمام عجلة القيادة ممسكًا بها ولا يتحرك، ينظر إلى خاتم الزواج الذي يحيط إصبعه بغيظ مكتوم. لام كثيرًا زوجته، التي لا تعينه أبدًا ولا تصبر عليه. لام جبروتها وكآبتها وانعزالها عنه. زفر في ضجر وأخرج سيجارة وأشعلها، ثم أخذ يزفر دخانها بعنف، وقد تملكته الحيرة. دقائق قليلة، ثم ابتسم ابتسامته الجانبية المعهودة، والتقط هاتفه، وأخذ يبحث في الأسماء حتى توقف عند اسم "آنابيلّا".

***

مفزوعًا صحوتُ من نومي، وأنا أتذكّر تفاصيل حلمي الذي أعادني إلى لقطات من حياتي السابقة، التي لم أكن أتذكر شيئًا عنها منذ قدومي إلى لندن. جلستُ في مكاني، أمسكتُ رأسي بيدي بقوّة.

- مَن غازيتا؟

ببطء حرّكتُ عيني نحو مصدر الصوت، لأجد "إليزابث" جالسة على المقعد واضعة ساق على ساق، تبتسم لي ابتسامة لم أعهدها منها قبل ذلك. قامت واقتربَت مني، وللمرة الأولى أمعن النظر في عينيها ذات الحجرَين الرماديَيْن اللامعين. توغلتُ في عينيها، لأعرف أنّها ذات شخصية قوية حكيمة، مرنة صادقة في مشاعرها وأفعالها لأبعد درجة. رأيتُ فيها كذلك مزيجًا من شجاعتها

وتعنّتها، وأيقنتُ أنها ممن ينكرون الذات وفي نفس الوقت ذات إرادة قوية. من سؤالها التمستُ غيرتها. لثوانٍ قليلة تفكّرتُ، قبل أن أجيبها:

- لن أسألكِ الليلة عن سبب تلك الكدمات.

- لماذا؟

- لأن الساعة الآن التاسعة، موعد المهدئ.

ضحكت..

- لا مهدئ قبل أن تقصّ عليّ كل شيء، عزيزي.

7

مساء اليوم الثالث والثلاثين

السفر هو متعة النوم الكامنة.. أقصد: النوم هو المتعة الكامنة في السفر. على كرسيّ قطار الركاب السريع، أنام وكأنني لم أنم في حياتي من قبل قطّ.. هكذا أعتقد!

تاركًا همومي على القضبان الحديدية، بين محطتي قطارات "سارپسبورغ" و"أوسلو"، لمسافة تزيد عن التسعين كيلو مترًا، لمدة ساعة وست دقائق، تكمن متعتي في النوم العميق دون إزعاج، وبلا ثرثرة، ولا مرافقين، وخالية تمامًا من النساء والكحول!

أنا لست ضائعًا مدمنًا للجسد، بل أهتم بممارسة رياضتي المفضلّة، وهي التأملات الروحيّة المتوغّلة في أعماق النفس البشريّة، في أثناء النوم. أمارس ذلك بكفاءة عند السفر.. لا أحتاج إلّا الهدوء، والهدوء هو النوم، والنوم سِرّ سعادة البشريّة الباعث على السكينة، فأستعيد كامل طاقتي عند الاستيقاظ، وأشعر بقوة ميثولوجيّة لا نهائيّة.

أهبط من القطار وأنطلق نحو "جامعة أوسلو"، لأُلقي محاضرتي في كلية الإنسانيات بالجامعة، فأنا أدرّس لطلابي مادة "پراكسيولوجي" (*Praxeology*)، إنّني موهوب في قراءة الأفكار والأعين وضليع في لغة الجسد، ودائمًا ما تكون استنتاجاتي صحيحة. أحيانًا! لا.. بل في الكثير من الأحيان، لا.. بل دومًا. أشعل غليوني، وأسير نحو الجامعة في تؤدة.

في المنزل، ألجأ إلى التلفاز ليساعدني على النوم. أشاهد الرسوم المتحرّكة غالبًا. أنا أيضًا مولع بالفنون المسرحية منذ صغري، وعلى يد عمّي نشأتُ تنشئة مسرحيّة خالصة، وكنتُ أداوم

على الذهاب إلى "الثياترون" في أثناء دراستي، ولا أملّ الفنون الأدائية بكل أشكالها وألوانها. جذبتني عروض "البانتومايم" و"الباليه" بطريقة خُزعبليَّة، وأكره "الأوبرا". نعم، ويا للأسف.. أشعر بالعار أن أكون على هذا القدر من التعلّق والشغف بالفنون، وأكره "الأوبرا". عروضها هي الحاجز الأبدي بين النوم وبين إنسان في أمس الحاجة للحظات من الراحة، فكيف إذا حضرت الأصوات الأوبرالية لا يذهب النوم إلى الجحيم.

شعرتُ بدفء يلامس شفتيّ! دفء بنكهة الكُرَيز التُركيّ الشهيّ، أتكون بقايا الـ "لولي پوپ" خاصتي التي أتناولها بطعم الكولا! مممم، لا، أهي نكهة الفراولة، لا أيضًا.. أهوَ البرقوق؟ لستُ أدري!

فتحتُ عيني ببطء وحذر، لكن الحذر لم يمنعني من صاعقة اللون الأخضر الساحر في عينيها والذي أصاب جهازي العصبيّ بصدمة مازوشيّة ساديّة الانحراف يساريّة الاتجاه! كجلمود صخر واصلتُ صمتي، تركتُ الفتاة تُنهي قبلتها الطويلة على راحتها، وأخيرًا انتَهَت منها بتنهيدة طويلة جدًا، دافئة جدًا، حارّة، لا بل ملتهبة شديدة الالتهاب! لم أستطع تحديد موقف مشاعري اتجاه ملامحها، فعلى وجهها تتبعثر النمشات وتضفي جمالًا وجاذبية لا تجتذبني! ولكن لها طلّة ذهبيّة كشروق الشمس، ابتسَمَت وهي تقول:

- اشتقتُ إليكَ كثيرًا يا حبيبي "سيري".

ممم (Siri) اسم جميل، ويعني "العادل"، ابتسمتُ وأنا أعتذر منها:

- عذرًا سيدتي...

ولكنها قاطعتني:

- "مارين".. حبيبتكَ "مارين".. ماذا بكَ يا "سيري"؟ ألا تتذكر حبيبتكَ!

اسمها "مارين" (Maren).. "فتاة"، حقًا إنها فتاة جميلة وتجيد التقبيل، يبدو أن هناك سوء فهم ما. أعتقد أنّ الأمور قد اختلطت عليها، فهي بالتأكيد تعتقدني حبيبها، أو قد أكون أشبهه إلى حد كبير جعلها تقبلني، في كل الأحوال أنا ممتن لسوء الفهم واختلاط الأمر عليها! ابتسمتُ لها وأضفتُ:

- سيدتي أنا "كريغ" ولستُ "سيري".. عذرًا.

غَيَّم الحزن على ملامحها وأطرقَت رأسها لثوانٍ وكادت تبكي، وأخَذَت تتمتم بكلمات لم أفهم لها معنى! ثم اعتذَرَت ونهَضَت مسرعة! في الحقيقة، كانت قبلتها أشهى وأشرس وأطول قبلة قُبّلتُها في حياتي على الإطلاق! واااو ثم واااو!

لم تمر دقيقتان -أو هكذا أجزم- وإذ بشرطي من شرطة القطار يقف أمام كرسيّي مباشرة. سألني بلطف:

- سيدي.. هل شاهدتَ فتاة صهباء حمراء الشعر؟

- شعرها أحمر مجعّد؟

- نعم بالضبط.

- خضراء العينين؟

- اها.

- وتجيد التقبيل؟

أجابني مبتسمًا، وأخذ يهزّ رأسه:

- نعم تجيده جدًا.

- أأنتَ "سيري"؟

ابتسم وهز رأسه نافيًا:

- لا.. لستُ "سيري".

- بالتأكيد لستَ هو.. أنتَ لا تشبهني.. لقد مرّت من هذا الاتجاه.

همَّ بالذهاب صوب العربة الأخرى، لكنه التفتَ إليّ وعلى وجهه نفس الابتسامة:

- سيدي.. من فضلكَ تأكّد من وجود حافظة نقودكَ.

وانصرف.

تملّكني القلق وأنا أبحث عن حافظة نقودي، التي لا أثر لها على الإطلاق! بحثتُ في كل جيوبي، ولم أجدها، وفي حقيبة يدي، أيضًا لم أجدها! لم أترك مكانًا له علاقة بي ويمكن وضعها فيه إلّا وبحثتُ به ولم أجدها! هذا إنْ دلَّ على شيء، فإنما يدلُّ على أنَّ الفتاة فعلًا تجيد التقبيل!

***

ضحِكَت "إليزابيث"، وأخذَت تصفّق، بينما أجلس على طرف السرير مبتسمًا، قالت:

- واو.. واو لمرة أخرى.. نهاية غير متوقّعة بالمرّة.. لطيفة جدًا هذه الفتاة.. من كاتب هذه القصة الرائعة؟

- كريغ.

- حقًا.. إنها رائعة.

نظرتُ إليها مقطّب الجبين قائلًا:

- أتعرفين كريغ؟

نظرَت إليّ وقد تملّكَ منها القلق، وقالت:

- كريغ؟

قلتُ بثقة:

- نعم كريغ.

- مَن كريغ؟!

- كريغ.. اختصارًا لكريغوري.. الكاتب النرويجي.

تلعثمَت وهي تكرر:

- كريغ.. حسنًا.

نظرتُ إليها متحسّسًا كدمات وجهها، قائلًا:

- ألن تخبريني بسر تلك الكدمات.

فما كان جوابها إلّا بنظرة إلى ساعة الحائط وكلمتين:

- موعد المهدئ.

8

مساء اليوم الرابع والثلاثين

لماذا تكتب؟

سألني البريطاني.

هذا السؤال هو أكثر الأسئلة سماجة على الإطلاق. نعم.. السؤال الحائز على المركز الأوّل دون منازع في اللا معنى. لماذا تكتب؟!، قد تكون الإجابة أكثر سخافة من السؤال: لماذا تكتب؟!

- أنا أكتب كي... ليس من شأنكَ.

أجبتُه واستطردتُ..

لم تكن الكتابة هي غايتي إطلاقًا، ولم أكن أتوقّع يومًا أن أكتب. هذا ليس شأني وحدي، بل إن أغلب من يسمعونك إجابات مزدانة لهذا السؤال هم فقط يلعبون معك لعبة جذب الجماهير. لا أحد يعرف لماذا يكتب أو يرسم أو يبتدع الموسيقى. عن نفسي، أردتُ احتراف الغناء، فغنّيتُ لأستمتع، فنصحوني بالتمثيل، ولم أكذّب خبرًا، ومثلتُ أيضًا فقط لأستمتع. عدت وكرهت التمثيل في خِضم الإقبال الرهيب من نصف الشعب على خوض تجربة مجال التمثيل؛ فاتخذتُ اتجاهًا آخر، لأنني مخلوق يكره الزحام والتزاحم. وجدتُ الطريق أمامي ممهدًا كي أكتب، فخضتُ التجربة، وقد نجحتُ في تجاوز العقبات التي التقيتُها في طريقي. وككل مرة -وللأسف- بعد تعلقي بالطريق، وجدتُ النصف الآخر من الشعب يريد أن يكتب، لكن هذه المرة لم يكن مِن سبيل للعودة. لقد نحّيتُ الفنّ جانبًا، وسأخوض التجربة بكل جوارحي في المجال الأدبي، رغم الزحام. سأكتب، فالكتابة أيضًا

فن، لا شك في ذلك. فليكتب مَن يكتب، ولكن الموهوب فقط مَن يستمر، ولماذا فقط يبقى الموهوب، لأنّه يكتب لا شيء إلّا ليستمتع. إذن أنا أكتب كي أستمتع، ولن أسمح للزحام أن يهزمني على هذه الساحة.

بوصولي للعام (1950)، كان قد مضى عقد كامل من عمري في مشوار تجربتي المسرحية، كهاوٍ أجوب خشبات المسارح المتعدّدة بأوسلو، وأتخبّط بين فِرَق الموسيقى الاسكندنافية. لكي تفهم أكثر هذا الذي يحدثك، لاحظ جيدًا أن انجذابي هذا لم يعوق مشواري العلمي، بل وكان في ذلك متعة. وفوق هذا وذاك، فإنني في تلك الفترة، كتبت مسودات لبعض القصص والمسرحيات، واحتفظت بأوراقي لحين مراجعة صياغتها مرة أخرى. أخذتُ نصيبًا لا بأس به من التقدير المعنوي، وحصلتُ على جوائز صغيرة في التمثيل والغناء على حد سواء، بل إنني بعد عامين حصلتُ على المركز الأول في التمثيل المسرحي بمسابقة وزارة الثقافة النرويجية.. يا للمتعة!

ورغم انغماسي في البحث الذي يقترب موعد مناقشته، واتخاذي أولى خطواتي الفعلية نحو استكمال أول أعمالي الأدبية (إذ كنت قد بدأت أول فصول روايتي "الليل في أوسلو"، والتي اعتبرتها وقتئذ مشروع حياتي) إلّا أنني لم أتوقف عن التمثيل، ولم أبتعد عن الغناء، حتى لقد حصلت في العام التالي على المركز الأوّل في الغناء في مسابقة لجامعة أوسلو، وتم اختياري ضمن الكورال الوطني. ولكن المسابقة لم تكتمل. حتى عدم اكتمال الأمور يحمل متعة من نوع مختلف!

حصلتُ أخيرًا على درجة الماچستير؛ كان ذلك في عام (1959). وبانتهائي من الماچستير، تجدد حماسي، وتقدّمتُ بمشروع الدكتوراه في أوائل عام (1960). استقرت خطتي العلمية، ومن ثم بدأت بضمير مرتاح متعة أخرى، ليست ككل ما قبلها.

بدأت أدقق فيما أكتب، وأفهم أكثر ما يقوله الناقدون من مصطلحات، كانت من قبل تضايقني وتطلق سخريتي من سفسطتهم. صرت أعرف عيوب كتابات غيري، وجعلتني الغيرة وحب التفوق أنقب عن تلك العيوب بنفسي فيما أكتب، وأزهو بعجزهم عن تفنيد سطوري حين أعرضها عليهم. ولمَّا فهمت أكثر، اكتشفتُ أعماقًا لم أكن أعرف بوجودها من قبل. أنارت سطور الكتب بمعانٍ ومقاصدٍ لم أكن أراها في قراءاتي السابقة، مما جعلني أعيد قراءة كتب كثيرة، كنت أظنني مللتها. في تلك الرحلة، رافقني العديد من الأصدقاء المخلصين، الذين آمنوا بمشروعي وشدّوا على يدي لاستكمال رحلتي.. لا أعرف أين ذهبت بهم الأيام.

في العام (1963) بدأ مشروعي الأدبي الثالث "الحب في أرض الضباب"، وأخذت في البحث عن دور نشر تقبل العمل. سألت من حولي إن كان النشر بمقابل مادي، فإنه لو كان يحتاج للمال، لما تمكّنتُ من النشر إطلاقًا. تبًا للمتعة.

أرسلتُ الرواية إلى كل دار نشر عرفت بها، بناء على نصائح زملاء الوسط الأدبي الأعزاء، وحصلتُ على الموافقة من خمس دور نشر، وتم الرفض من قِبَل داريْن لأنّ العمل -على حد قولهما- لا يتناسب مع سياسات الداريْن. تبقَّت أمامي الدور الخمس، استبعدت ثلاثة، لأُفاضل بين اثنتين، وكان الاختيار غاية في الصعوبة، فكلتاهما أقدرها وأكنّ لها كل الاحترام، وتربطني بالقائمين عليها علاقات إنسانية طيبة. كانت الرواية كبيرة الحجم، وأحداثها تدور في لندن، وأنا كاتب جديد أخوض تجربتي الثالثة ولم ينتشر اسمي بعد، وهذه مغامرة مليئة بالمتعة لي، ولكنها مقلقة لمدير الدار. هذا لم يمنع من نشر العمل في الثامن عشر من شهر آب من العام (1964)، بعد انتظاري لمدة عام كامل ما بين التدقيق والتحرير، واختيار الغلاف المناسب من بين عدّة أغلفة قمتُ برسمها بنفسي. على أي حال، هذه الثرثرة يعرفها وعايشها كل كاتب جرَّب نشر مخطوطته.

بعد أن نُشِرت الرواية، امتلأت بالحماسة لأشياء كثيرة، وقررت أن أجدد تخطيطي للفترة القادمة، وكان أن اتخذتُ قراري باعتزال النشاط الفني، على الأقل لحين حصولي على درجة الدكتوراه، ومن ثم أصبح موضوع بحث الرسالة هو شغلي الشاغل. بدأ هذا في آذار من نفس العام، واستمر حتى حصولي عليها في الرابع من كانون الثاني عام (1966). لقد كانت تلك الفترة أكثر رحلاتي متعة على الإطلاق.

"لماذا أكتب؟" أنا أكتب فقط كي أستمتع. انتهت مقابلة اليوم أيها البريطاني.

9

مساء اليوم الخامس والثلاثين

لقد عشتُ سكراتي -قبلما ألفظ آخر أنفاسي وتفارقني الروح- ومرّت حياتي لحظتئذ بسرعة خاطفة، أتذكّر كل تفاصيلها. مرّت بخاطري أشلاء ذكريات الطفولة. بقايا الأشياء هي تلك الأطلال التي تبقينا على قيد الحياة. بالكاد تخطّيتُ سِنّ المراهقة في خضم الهَبّات الشبابية الاعتراضية، في يدي كاميرتي التي مرّت على عدستها كل المتناقضات. تذكرت لحظة التحفّظ عليها وحبسي.. بصقي الدماء قادمة من جوفي، وهول المرة الأولى.. ارتفاع حرارتي بجنون، واستمرار القيء البغيض.. مراحل تطوّر المرض وأنا في محبسي.. وهني لدرجة عجزي عن تناول الطعام.. نزيف الدماء من أنفي.. وحسرتي أول مرة أقضي حاجتي في مكاني واتساخ ملابسي، عاجزًا عن القيام للمرحاض.

يا للضحك..! بعد ثلاثة أسابيع، أعلنَت مستشفى السجن أنني مصاب بالأنيميا، دون توقيع الكشف الطبي عليّ! وبعدها قالوا تايفود، وأخيرًا ڤيروس كبدي. كنت قد خسرتُ من وزني خمسة وعشرين كيلوغرامًا في شهر واحد. تمّ نقلي إلى مستشفى الحُمّيّات، حيث سمحوا لوالدتي بأخذ عيّنة من دمي للقيام بتحليلها بالخارج، ليكتشفوا تمكّن اللوكيميا من دمي تمامًا. ليس من الرحمة -بأمي على الأقل- أن تُغلق أبواب الحياة في وجهي في سنّي هذا.

في البداية لم أكن أعلم حقيقة مرضي، وأخذتُ ألحظ ضعفي وهواني يزداد أكثر يومًا بعد يوم، وفي كل مرة يغازلني الأمل، يُقضى عليّ بالخيبة من شدة الألم. أوّل مرة أعرف بحقيقة ما أصابني، عندما ذهبتُ لتجديد الحبس الاحتياطي، والمحامي يخبر وكيل النيابة بكل ثقة: "هذا مريض بسرطان الدم، فلماذا يموت في السجن؟". يا للرحمة التي يطلبها لي، ولكن لا يرحمني بها

ويتلطف أمامي فيما يقول! ماذا كان يضيره لو كتب ما يريد وأراه لوكيل النيابة دون أن يصفعني به هكذا؟! على أي حال، أجاد المحامي -أو المرض- عمله وصدر القرار بالإفراج عني لأخرج لتلقّي العلاج.

ولمّا لم يستجب جسمي للعلاج في بلادي، قرّر أبي أن أسافر للخارج، وبدأَت رحلة علاجي في عاصمة الضباب. انقَضَت الأشهر، لا يستجيب جسمي للعلاج الكيميائي. نسبة الاستجابة بين المرضى عالية، ولكن جسدي اختار الانتماء للقلة المعارضة للدواء. وافَقتُ -ومن ورائي توقيع أبي على الكثير من الأوراق- متطوعًا لتجربة أدوية حديثة لا تزال في طور البحث والتطوير. لم يكن لديّ ما أخسره، ولعلّها تجدي معي نفعًا.

لكن التحاليل لم تأت أفضل من سابقتها، وانهارت نفسيتي مع تساقط شَعري ووضعي الذي يزداد سوءًا كل يوم، والألم الذي يشتد أكثر فأكثر. ففقدتُ الأمل نهائيًا، ودعَوتُ أن يأتيني الموت على وجه السرعة ليكفيني الألم.

اتخذت قراري ذات ليلة كئيبة كغيرها. كان على هذه الرواية أن تنتهي، بآلامها، ووخزاتها، ووهنها. قررت أن عروقي لن تستقبل المحاليل بعد الآن.. على الكيمياء أن تموت هي الأخرى، فلا جدوى منها. كفى.. كفى.. أنفاسه الحارقة باتت قريبة إلى حد مرعب.. لن أنتظر، ولن يظل أحد ممن يحبونني في حالة انتظار تحطم روحه كل لحظة. سأكتب النهاية بيدي..

لكن المسافة بين القرار والتنفيذ كانت أكبر من أن أقطعها.. أنا لا أقوى على الحراك من الأساس..! آه، تبًا لكَ أيّها المرض.

10

صباح اليوم السادس والثلاثين

في صبيحة اليوم التالي، دخلَت الليدي الجميلة، لتجدني لا أزال نائمًا؛ أو هكذا قصدتُ أن أوحي لها. حملت بين يديها شيئًا مكوَّرًا، ضعف حجم كرة قدم. وضعَته فوق المنضدة، إلى يمين السرير أسفل الشباك، الذي أتى منه ضوء الشمس. أزاحت عنه الغطاء، فإذ به حوض سمك تدور فيه أربع سمكات متباينة الشكل والحجم.. السمكتان الذهبيتان خطفتا عيني، فلم أستطع أن أستمر في ادعاء النوم.. نوع من الأسماك الصغيرة الأنيقة، له رأس منتفخ وذيل مروحي يتحرك في هدوء مريح. السمكتان الأكبر كانتا داكنتين، تنتشر على جسميها بقع برتقالية عشوائية، وقد فرضَتا سيطرتهما على مركز الكرة المائية بسباحة همجية.

ظلت "إليزابيث" تراقب تركيزي مع ما أتت به، ثم مدت يدها بالطعام فوق الحوض، فإذ بالسمكتين الكبيرتين تفتحان فيهيهما لالتقاط الطعام بشراهة وعدوانية أشبه بكلبين شرسين جائعين، قبل أن تزدادان فوضوية أخافت السمكتين الأخرتين، فهبطتا لقاع الحوض تختبئان بين الشُعب والصخور الصغيرة.

ابتسمت.. هل تريد أن تريني كيف تفرض الشخصية الهمجية الرهبة على الأكثر هدوءًا؟ هكذا بدا الأمر لي.

انتهَت من وضع الطعام، وجلسَت على الكرسي بجوار المنضدة. نقلت عينيها بيني وبين مفكرتي، ثم حدّقت في وجهي تتأمله. أغمضت عيني مداعبًا النعاس، فساد الصمت لدقائق، قبل أن أسمعها تهمس بصوت رقيق:

-"لك أهداب طويلة، ولحية مهذّبة يتخلل سوادها شعرات بيضاء تعجبني في الحقيقة".

فتحت ما بين جفوني خطًا رفيعًا يكفي لأن أراقبها دون أن تعرف أنني مستيقظ. لم تتردد في الإمساك بالمفكرة، ودون أن تسألني فتحَتها. فوجئَت.. كانت تتصرف باعتيادية، وتفتح صفحة محددة تعرفها. أدركت أنها ليست المرة الأولى، وأنها اعتادت أن تمسك بالمذكّرة عندما تتأكّد من أنّني أغطّ في سباتي العميق، فهي تعرف تماما صفحة الجديد الذي دوّنتُه بين دفتيها. تمتمت بالعنوان الجديد: "الراعي والجِمال". رفعت حاجبيها وابتسمت، ثم أخذَتها بين يديها وألقَت نظرة غير عابئة نحوي، ثم شرعَت في القراءة. لم أكن أعرف إن كانت قد لمحتني أفتح عيني مع المفاجأة أم لا، فتظاهرت أن المهدئ يجعلني غير واعٍ لما يحدث أمام عيني، ثم عاودت إغماضهما، مطرقا سمعي لهمسها الخفيض.

- "أنعرف لنا راعٍ غيره؟".. أووه، لقد كتب قصة جديدة!

"ساعدني يا صديقي، ادفعها معي برأسكَ. لا، هذه ليست رأسكَ.. هيا، ادفع مرة أخرى، لا لا.. لا تدفعها بعنف، حتى لا تبتعد أكثر، فنحن مُقيّدان. وعلى الرغم من علمي أنّ كل ما بها من طعام قد سقط، إلّا أنني لا زلتُ لم أفقد الأمل بعد في تناول القليل".

هيا، لنحاول مرة ثانية.

رائع.. هكذا بالضبط.. أعلى قليلًا، برفق.

أووووه، تبًّا! إنّها تبتعد.. اللعنة، سنتضوّر جوعًا.

لو كان للراعي القليل من الضمير، ما أهملنا إلى هذا الحد، وما قيّدنا بهذه القسوة. أيظنّ أننا سنهرب؟! لكن ألا يُدرك أنّنا لا نعرف لنا راعٍ غيره؟!

كان عليه أن يهتم بوضع وعاء الطعام بطريقة صحيحة، قبل أن يسقط أرضًا مانعًا عنّا قوتنا. سيَمُرُّ يومٌ آخر دون أن نأكل، لقد أوشك ما بسِنامينا على النفاذ. لا حيلة لنا.. ليس بوسعنا إلّا أن نُصَبّر أنفسنا بالماء اليوم أيضًا، وفي الغد سيأتي راعينا ويُعيد الكَرَّة.

أكل ما استطاع فعله أن يُحكم وثاقنا، وكفى؟!

متى يستفيق الراعي ويهتم بجِماله؟".

ترنمت بالتوقيع في نهاية القصّة:

- "كريغوري سويسبيرغ".. "لندن"، دون تاريخ. كيف لهذا الشرقي أن يكتب باللغة الإنجليزية بهذه الروعة! لقد أعجبَتني هذه القصة أيضًا، لغته سلسة وأسلوبه بسيط، وتصوّره بارع. يعجبني في كتاباته تقمّصه العميق في انفصاماته المختلفة، وتباين شخصياته. يا ترى ما هي شخصيّته الحقيقية، ومتى ستظهر؟

تنهّدَت "إليزابيث" وهي تغلق المذكّرة، ثم أغلقَت عينيها، واستندَت برأسها إلى المقعد الخشبي الهزاز. أخذَت تهزّ نفسها ببطء وهي تحتضن مذكّرتي، فكأنها تحتضن صغيرتها. ظلّت على حالها فترة، ثم توقّفَت فجأة وألقَت نظرة إليّ، فسارعتُ بإغماض جفنيّ. نهضَت في هدوء. واقتربَت مني أكثر، وأنا لا أحرّك ساكنًا. كنت أشعر بها تقترب، وعطرها يخترق صدري، وكأنها تشك في حقيقة نومي، لكنها في النهاية تأكّدَت من انتظام أنفاسي، فاطمأنّت. لمستني بأناملها، فكدت أنكشف. لو أنها تتحسس نبضي بيدها الأخرى، لاكتشفت كيف تسارَع محييا لمستها لأهدابي.. أكثر شيء أعجبها اليوم..!

سمعت تنهيدتها، ثم أحسست بها تبتعد، ففرجت ما بين جفوني فرجة لا تبين، ورأيتها قد ذهبَت إلى حوض الأسماك تنثر بعض الطعام، ثم خرجَت كما دخلَت في هدوء، وأغلقَت خلفها الباب دون صوت.

11

مساء اليوم السابع والثلاثين

أعادني السيراف إلى الحياة بعد صراعه مع "مبعوث آنوب". انتصر لي.. أعاد روحي المعذَّبة إلى جسدي العاجز المهترئ المليء بالثقوب من أثر الوخزات، وقد أحاله الهدم الخبيث إلى جعبة عطنة تعجّ بالقاذورات. انتفضَ حين فارقَتْه، كما انتفض حين عادت، لم أكن أتوقع أنّه لا تزال به قدرة على الانتفاض من الأساس، لكنّه فعلها. جسدي الذي تحوّل إلى مومياء فرعونية لم ينجح فيها التحنيط، لن أنسى شكله آخر مرة حين تطلّعتُ إليه في المرآة قبل وفاتي بساعات، قبلما أستلقي على الشيزلونج للمرّة الأخيرة ويغرزون الإبرة السميكة الطويلة في رأسي، فأشعر أنّ مخّي يتسرّب ببطء متطايرًا من رأسي الأقرع، الذي أحس به خاويًا لا ثقل له فوق منكبيّ بارزَي العظام، وإبرًا أخرى لا حصر لها خلّفَت ثقوبها في ذراعَيّ النحيلَيْن، الذيْن ألمّ بهما ألم جعلني لا أستطيع تحريكهما كما اعتدتُ، وإن لم يجدوا بهما عروقًا نافرة ولا غائرة بحثوا في عنقي النحيل -الذي التصق بكتفيّ- عن موطئ يغرزون فيه إبَرَهم. آلام الوخزات، وسريان المحاليل البغيضة في جسدي، وانتظار الموت، كل ذلك يُجبر عينيّ على التحديق في المطلق لفترات طويلة كمن فارقته الروح. في هذه المرة ظلّت عيناي جاحظتان طيلة الجلسة.

لم أتذكّر إن كانت أمي هنا أم لا، لكنني قطعًا شعرتُ بوجودها، كذلك أصدقائي. بالتأكيد أبي لم يكن -كعادته- بين الحاضرين. لا فرق، فأنا لم أعد أنتظره. فاضت روحي وأنا في تلك البلاد الغريبة القاسية، قارسة البرودة، هذا أكثر ما آلمني قبل مماتي. لطالما تمنّيتُ أن أموت في بلادي. لكنّني طيلة حياتي لم أنل شيئًا مما تمنّيتُ، فكيف لي بمناله عند احتضاري؟!

لم أعترض في يوم على قدر كُتب لي، ولم يزدد حنقي بسبب ذلك العذاب المُقدّر لي قبل ميلادي، أو حتى ندبتُ حظي على تلك الابتلاءات التي كبّلتني، ولم أحدث نفسي عن آلامها التي ما فارقتها طيلة حياتي، إلّا لحظتها.. عندما جاءني مبعوث الموت قاطب الجبين، عاقدًا عزمه أن يقضي عليّ القضاء المبرم.

حتّى عند الموت يجيئني القابض مقطّب الجبين! أما كان عليه أن يبتسم في وجه المبتسم دائمًا؟ لمن لم تبتسم له الحياة أبدًا؟! ألم أستحق ابتسامة؟! فقط ابتسامة! يا للظلم..! في هذه اللحظة فقط تمردت!

على كلٍ، ابتسمتُ لقابضي واستسلمتُ. قبض بمخالبه على كاحلي.. على الفور شعرتُ بوخزات حارقة، كتلك التي تُغرز في عروقي. امتزج ألمي الجديد بآلامي القديمة، حتى أنني لم أعد قادرًا على تمييز أيهما أشد حدّة وأكثر قسوة. تسلّقَت، حتّى تعثّرَت عند حنجرتي. ابتسمتُ أيضًا رغم الألم الشديد، وتذكّرتُ سبب كرهي لأكل السمك؛ تلك الأشواك التي كانت تتعلّق أُفقيًّا بحَلْقي. عرفتُ الآن أن ألم الشوكة لم يكن ألمًا من الأساس. الغريب، أنني ابتسمتُ توًّا. وقتذاك لم أكن أبتسم، بل أطلق وصلة طويلة من السب واللعن لكل أنواع الأسماك، وألعن نفسي إن عاودتُ الكرّة وتناولتُه، وللأسف عاودتُها مرارًا وتكرارًا ولم أتعلّم.

أخذ القابض يسحبها بعنف، عندما تشابَكَت بحلقي. عندها بلَغَت نفسي أقصى درجات العذاب. لم يكن ليّنًا معها، فلو كان كذلك لطاوعَتْه وخرجَت كقطعة من الحرير تتهادى على جسد منعّم لفتاة أرستقراطية من العصر الإليزابيثي. عاود الشد بعنف، حتى انتزعها، وسرَت البرودة بسرعة، وسكن جسدي.

***

هذا أنت يا عزيزي "آنوب"! أهلًا بكَ. أشعر بأنفاسكَ قوية شديدة اللّهب هذه المرة..! لقد قررت ألَّا أستسلم لمبعوثكَ. أشعر بوجوده، لكن فليعُد من حيث أتى، فلم تحِنْ ساعتي بعد، وأبدًا لن أخضع. ليس وقد عثر قلبي على عشق يُحْيِيه.

- مساء الخير.

قالتها "إليزابيث" عندما لمحت حركتي تحت الغطاء، فأجبتُها بحزنٍ:

- تقصدين مساء الألم. هكذا ينتهي يومي كما بدأ؛ بالألم. صرت لا أستطيع مجرد قضاء حاجتي وحدي، فأي ألم هذا للنفس قبل الجسد؟! بدلًا من احتساء قهوة الصباح، أحقن بالمحاليل ليحتسي جسدي السوائل منعدمة اللون والمذاق. صارت أيامي تمر، ولا شيء فيها غير انتقالي من سرير إلى آخر، ومن جهاز لآخر، ومن ألم إلى ألم، وبحلول الليل أبيت في غرفتي وقد مللتُ الألم، وأنتِ -قبل ذهابكِ- تتمنين لي أن أُصبح على خير، لكن الحقيقة أنني رغم أمنيتك أصبح كل مرة على الألم.

احتقن وجهها انفعالًا بكلماتي، وهمست:

- ماذا بك؟

طفرت بعينيّ الدموع، فلم أستح منها، بل نظرتُ إليها وقد قلبت شفتي استنكارًا لسؤالها. لا أعتقد أنني بحاجة لأن أشرح لها أن طريح الفراش الذي لا يقوى على الحركة هو بالتأكيد غير سعيد، ولن ينسى مأساته لمجرد أن من حوله يشفقون عليه!

- لا تصمت هكذا، أرجوك.. أأنتَ بخير؟

قلتُ بشفتين مرتجفتين:

- بخير؟! بل أنا أحتضر؛ ألا تعرفين ذلك حقا...؟! كرهتُ كل الكيمياء، والإبر المغروسة في عروقي لاستقبالها. أمقت صداقتي الجبرية للمحاليل التي تؤخِّر موتي قليلًا، مقابل أن أنام مع الألم، أصحو بالألم، أشعر دومًا بالألم، أتنفس الألم، أتجرّع الألم، ولا أصدق أنني لا زلتُ حيًّا! حتمًا سأرحل، وأخبر السماء بكل شيء. أنتِ تعرفين كل ذلك، ثم تسألينني إن كنت بخير!

ربتت على صدري بكفها، وابتسمت لي في حنوٍّ أطفأ غضبي. أغمضت عيني مستسلمًا لحنانها، بينما سألتني ممازحة:

- تريد أن تخبر السماء بكل شيء؟ هل هناك أشياء ما تخبر به السماء وتحجبه عني؟ مممم، ماذا عساكَ أن تقول لها إذًا؟

لم تفلح في بث المرح بي. تنهدت في أسى وقلتُ:

- سأقول أنّ آلامي كانت مريرة ثاقبة، ووخزات المحاقن كانت كثيرة قاسية، وأن شبابي كان أقصر مما ينبغي لإنسان، واستُبدِل بهِرَم لا يليق بعمري، واستُبدلت قوتي بضعف، ووسامتي بجسد مسموم هزيل، وضحكاتي بأنّات.

دمعت عيني، فابتلعت دموعي للحظة، ثم استطردت:

- لقد أصبحت الحياة ذكرى يا "إليزابيث"، وصار الموت أمنية، فهل سأستحق العفو؟

- تستحق.

- حقًا؟

- لو كان للقدير أن يعطي لأحد فرصة أخرى للحياة، فأنتَ الوحيد في هذا العالم مَن يستحقها. سأُصلي من أجلكَ، وأدعوه أن يمنحك إياها.

- أأستحقّ ذلك حقًا؟

- "ويكون القدير ملجأ للمنسحق، ملجأ في أزمنة الضيق".

- هوّني عليكِ "إليزابيث" لقد منحني إيّاها بالفعل.

دنت مني أكثر.. هذه هي المرة الأولى التي تدنو مني إلى هذا الحد. نظرَت إليّ متعجبّة. للمرة الأولى تحدّق في عيني الواهنتين. أدركت أنها غاصت في لون البندق بحجريهما. لطالما كنت أنا نفسي أغرق بهما حين النظر في المرآة. صارتا تُعكّرهما الحُمرة الآن، كالنعيم الغارق بين طرق من الدماء والألم، استفاقت، وقالت بصوت مأخوذ:

- متى شعرتَ بذلك؟

عانقتُ عينيها، واختلطَت أنفاسنا باللهيب. مسلوب القوة منزوع الإرادة مكبّل الروح، أجبتُها:

- عندما التقيتُ بعينيكِ.

- ستجد عيني دائمًا هنا لأجلكَ.

- عندما تذهبين أشعر بأنفاس "آنوب" تقترب بشدّة مني. أعرف أنّ الشفاء بات مستحيلًا، لكن الحُب يجعلني أرفض فكرة الاستسلام. أبدًا لن أستسلم!

أمسكَت يدي بقوّة، وضمَّتها إلى صدرها، وقالت بلهفة:

- إذا دنا منكَ مبعوث الموت، حتى وإن هزم شجاعتكَ، فتأكد أنني سأكون إلى جوارك دائمًا. أنتَ تحيا بداخلي.

جذبتُ يدها، وطبعتُ قبلة بباطن كفها، وعاودتُ عناق يديها بقولي:

- كل ما أشعر به من ألمٍ لا شيء أمام خوفي من فقدانكِ، ولذا أخاف أن أموت. بل وأخاف أن أُشفى، وهذا مستحيل؛ فأرحل عنكِ إلى بلادي. عيناكِ أصبَحَتا موطني، وإنّ أبغض الرحيل الرحيل عن الوطن لأي سبب.

نحّت الوسادة جانبًا وضمّت رأسي إلى صدرها بقوّة، فانهمر الدمع من عيني. خرجَت أنفاسي لاهثة متقطّعة من الألم، قبّلَت جبهتي قبلة طويلة وقالت:

- ستشفى، وتعود إلى سابق عهدكَ، وتحقق ما تريد. طالما أنتَ حيّ ستكون. الشيء الوحيد الذي سيجعلكَ ألّا تكون هو غيابي.. لا تبكِ حبيبي، فلا موت في حضرتي.

- أنا لا أبكي خوفًا من الموت، لكن أبكي على ما سيسبّبه موتي مِن هَمٍ وغَمٍ لأمي، التي عانت لسنوات حتى رُزقت بي. ستفقد وحيدها! أما لنفسي، فكل ما أخشى هو فقدانكِ يا إليزابيث.

أخذَت تمسح على رأسي بحنان، وابتسمَت وهي تداعب أنفي:

- لننحِّ الدراما جانبًا يا ذا الأنف الدقيق المنحوت. لنفترض أنكَ مُصاب فقط بنزلة برد، ماذا كنتَ تفعل في بلادكَ حينها؟

ابتسمتُ ناظرًا إليها قائلًا:

- أتابع أفلام الرسوم المتحركة، وأحتسي الينسون تارة والليمون الدافئ تارة أخرى، وأعتزل البشر تمامًا، فأشعر بتحسّن كبير.

- وهنا؟

نظرتُ مباشرة إلى عينيها ودون تردد أجبتُها:

- هنا اعتزلني البشر.

- أنا بجانبكَ.

- ومن قال أنكِ من البشر؟!

ابتسمَت، فأكملتُ في ولهٍ:

- يكفي أن أنظر إليكِ، فأشعر أنني حقًا بخير.

- صدقني، وأنا أيضًا.

صمَتُ لوهلة، ونظرتُ إلى حوض الأسماك. خيّل إلي أن صوتًا غريبًا صدر من هناك! تردد نظري بين الحوض والباب. الباب مغلق، فمن أين يأتي الصرير؟! والأسماك لا تصدر أصواتًا من الأساس، فمن أين يأتي الصفير؟! سألتُها:

- أتسمعين هذا الصوت؟

- أي صوت؟

- الصادر من الحوض.

- لا.. لم أسمع شيئًا.. قد تكون الفقاقيع.

- جائز.

لم ترضِ الإجابة فضولي، ولكنني لم أشأ أن أتوقف عندها، فقد كان بي ما يكفيني من الحيرة والألم. الأمر معقد جدًا.. تغاضيتُ عن ريبتي، عاودتُ النظر إليها وسألتُها هاربًا متعمدًا:

- ألا تضايقكِ أفعالي؟

ملأَت ابتسامتها ثغرها وهي تقول:

- أفعالكَ ليست غريبة على الإطلاق، منذ اللحظة التي رأيتُك فيها عرفتُ أنكَ غير عادي.

"أنتَ غير عادي".. كم من مرة ترددَت هذه العبارة على مسامعي، فلم ألقِ لها بالًا كما في هذه المرة.. أأُصدّق؟

بادرتني بالإجابة قارئة ما يدور بخلدي كعادتها:

- صدّق. هكذا أنتَ، وهكذا ستكون دومًا.

وضعتُ كفّي على وجهها، وحرّكتُ أناملي ببطء. توقّفتُ عند الكدمات إلى جوار عينيها، تأملتُها وقلتُ آسفًا:

- ما سر الكدمات الدائمة على وجهكِ الجميل؟

أمسكَت يدي، ونحّتها عن وجهها. نظرَت إلى الساعة المعلّقة على الحائط وقالت مبتسمة:

- موعد المهدئ يا عزيزي.

ابتسمتُ وأنا أمدّ لها ذراعي قائلًا:

- أكان ينتظر موعد المهدئ سؤالي؟

حقنَتْني بالمهدئ، وانتظرَت قليلًا حتى أغمضتُ عيني. ذهبَت نحو الحوض، وأخذَت تضع الطعام للأسماك. تابعتُها، ومجهودي للابتسام يقل شيئا فشيئا مع النعاس الذي يغالبني. في الحوض، ازدادت فقاقيع المياه، وبرزَت إحدى الأسماك بخياشيمها عند سطح الماء، تفتح فمها وتغلقه، بينما أخرى تقبع في القاع، تختبئ بخوف بين الأصداف، فهي الأصغر بين السمكات. سمكة ثالثة التصقت بزجاج الحوض تنظر نحوي، والأخيرة أخذت تطارد بقايا الطعام السابح هنا وهناك في أرجاء الحوض. تذكرتُ الصوت المريب المعقد، حين تحركت الأسماك فزعة كأنها تحاول أن تهرب من شيء ما. حاولتُ جاهدًا فتح عيني لأتبيّنه، لكنني لم أقو على ذلك، وخانني الوعي.

12

مساء اليوم الثامن والثلاثين

سمعَت "آخ" طويلة، عقب تثاؤب الإعياء فور استيقاظي. لم تلتفت، وأكمَلَت وضع الطعام للأسماك في الحوض، وبثبات قالت:

- مساء الخير.

- مساء الخير؟! بل صباح الخير ليدي بيث. مبكّرًا جئتِ اليوم.

- بل أنتَ الذي استقيظتَ متأخرًا جدًا. لقد نمتَ طوال اليوم؛ إنها السابعة مساءً عزيزي.

- أووووه! حقًا؟

- اها، تابعتُكَ طيلة النهار، نائمًا كالقتيل، لدرجة أني راقبتُ أنفاسكَ لأتأكد أنكَ لا زلتَ على قيد الحياة. لكنني لم أوقظكَ لأنّ الإعياء كان يغمرك.

سكت للحظة، أستوعب ما قالت، ثم سألتها:

- ماذا تفعلين؟

- إنه موعد وضع الطعام في الحوض.

- رائع التزامك اتجاه من ترعين. أعتقد أن السمكات عرفنك وأحببنك، فأنت فقط من تأتي لهن برزق بطونهن. حسنًا، ماذا لدينا اليوم؟

- ما الجديد في جعبتكَ؟

ابتسمتُ ناظرًا إليها وقد انتهَت من وضع الطعام، والتفتَت إليّ مبتسمة هي الأخرى. سألتُها أن تناولني مذكرتي. من فوق الطاولة أخذَتها واتجهَت نحوي، وعلى طرف السرير جلسَت. أعطَتها لي، وقالت في جدية:

- القليل فقط، ثم تتناول إفطارك، هذا مهم للغاية.

أومأت موافقًا ومنتشيًا باهتمامها، واعتدلت هي متأهبة للاستماع..

وفتحتُ الصفحات شارعًا في القراءة.

***

الحرب فعل قاسٍ، بربريّ، وحشيّ، دمويّ. تصير الحياةُ أشد قسوة حين يحتلُّ الغرباء أرضك، يهددون أمنك، يهدرون كرامتك، يهتكون عرضك.. إنه الابتلاء الأسوأ!

دون مبرّر يخصك، تجدهم يقصفون المباني حولك، يهدمون المصانع حيث تعمل، يدمّرون ويحرقون كامل المدن التي فيها حياتك، ثم يتحكّمون في طعامك وشرابك، حتى في أنفاسك، السلع والمؤَن تظهر تارة وتنقص أخرى وتُمنعُ تارات، أي ذل هذا مع الخوف والقلق وانتظار السوء في كل لحظة من نهارك وليلك..! في تلك الظروف يكون الموت أكثر رحمة وراحة للكثيرين.

وطَأَت أقدامهم القذرة أراضينا في اليوم التاسع من نيسان عام (1940)، وضربوا بهمجيّتهم العديد من مدن الوطن، وللأسف استطاعوا إسقاط الكثير منها في الأيام الأولى من الحرب؛ حتى كادوا يتمكّنون من كل بلادنا؛ لولا تدخّل القوات الفرنسية والإنجليزية لمساعدتنا مع قوّات التدخّل السريع، التي بمجيئها توازنت القوى، واعتدلَت الكفّة، ثم عاد النصر يحالف المدن الشمالية ناحية بحر الشمال، وإن استمرَّ القتال ولم يتوقف النزيف. تمكّن الخوف من الناس، عانينا من الجوع والعطش والذلّ، لكنَّنا رغم ذلك تناسينا سخطنا على الحكام والنظام، ولم يقر في قلوبنا إلا الوطن وحمية عشق الأرض والانتماء.

لا شيء أكثر قسوة من القهر. طيلة اثنين وستين يومًا من النزيف والمذلّة، نقف ببسالة وصمود أمام النازيّ، كما لم تصمد أمة غيرنا. حتى اليوم العاشر من حزيران، لم يتخلَّ الأمل عنّا

لحظة، ويساعدنا الحلفاء. لكن بعدما أتاهم الخبر الأسود بغزو قوات الرايخ الثالث النازيّ لفرنسا، أُجبِروا على الانسحاب من مؤازرتنا، فما كانت إلا أيامًا معدودات، وتمكّن الألمان من السيطرة على كامل البلاد بقبضة من حديد؛ وأيّة قبضة!

جلالة الملك المعظّم، أين عظمتك؟ السادة الوزراء، أين سيادتكم؟ وجهاء المجتمع، أين وجاهتكم؟! لماذا لا يأتينا منكم خبر؛ أأنتم بخير؟ أأنتم حقًا تقاومون ههنا، أم فرّطتم في الوطن ووليتم الدُبُر كما سمعنا؟ وكان حقًا ما سمعنا. فرّ الملك وحاشيته إلى عاصمة الضباب، وأرسلوا الأخبار أنهم يواصلون المقاومة من هناك!

أيّة مقاومة تلك؟! أيُّ نضال هذا؟! كانت آذاننا عند استهلال بيان من الإذاعة بعبارة: "هنا النرويج من لندن" تقهرنا أكثر من جنود النازي. فلتعش كثيرًا جلالة الملك، ودامت مقاومتكَ المباركة، ودام نضال الحاشية الموقّرة، من لندن!

وقتئذ، كنتُ في السادسة عشر. ورغم الاحتلال، تمكنتُ من الذهاب إلى المدرسة، كما استطاع أبي مزاولة عمله هو وسائر الناس. بالطبع لم تكن حياتنا الاعتيادية، فقد تحوّلت البلاد إلى سجن شاسع المساحة، الأطعمة توزّع بميقات محدد وكَمّيّات محددة، كذلك الملابس، وغير ذلك. تبدّل كل شيء حولنا إلى لون هباب القذائف. غام الغد عن سماء البلاد، ولم نر للوطن الذي اعتقله الألمان في غياهب الغموض والظلام والظلم بصيص مستقبل يحمسنا للحياة. أعجب أننا رغم ذلك كنا نمارس الحياة!

لماذا يحتلُّ الألمان بلادنا؟ تساءلتُ، ولم يجبْني أحد. أحدٌ لم يكُن يفهم لماذا، وكان الكل مثلي يتساءلون! بعد ذلك عرفنا السبب. إنه موقع بلادنا المميز لضرب السويد وفنلندا ثم الدنمارك، وربما حصار إنجلترا. لعنت الألمان.. أيقتلون بلدي ويستخدمون جثتها سلاحًا يذبح بلادًا أخرى، وكلنا لا علاقة لنا بصراعهم القذر مع بريطانيا؟! إلى هذا الدرجة يروننا -وكل من ليس منهم- مجرد أدوات جيدة للحرب، يمكنهم استغلالها بدمٍ بارد؟! عشتُ فترة المراهقة أكرههم أكثر فأكثر، وفي المقابل أزداد حبًّا للوطن، الذي صار في قلبي هو الأغلى على الإطلاق.. أغلى من الأم والأب والحبيبة.. رأيت ذلك حتى في عيون الآباء والأمهات، الذين صارت الأرض أغلى في قلوبهم حتى من الأبناء، حتى من النفْس والنفَس، واكتشفنا اكتشافًا جماعيا تلقائيا أن حُبُّ الوطن ليس كمثله حُبّ.

في النهاية، استسلم الألمان في أيار (1945) للحلفاء. ولكن بعد أن دَمَّر النازيون البربريون أسطولنا التجاريّ الكبير الذي كان ينقل السلع إلى العديد من البُلدان المحاربة للألمان، وقتلوا أربعة آلاف بحار، وأكثر من عشرة آلاف إنسان، لا فرق بين شاب وامرأة وطفل وشيخ، واعتقلوا سَبعمِئَة يهوديّ في معسكرات الأسرى في پولندا وألمانيا. الخسارة الأكبر والحسرة والصدمة كانت بعد ذلك، حين اكتشفنا أنّ بيننا خمسين ألف خائن تعاون مع النازيين، كلهم من "الحزب الاشتراكيّ الوطنيّ النرويجيّ"! حملنا لهم البغضاء والاحتقار، بل والغل، لدرجة أننا، عندما نُفذَت أحكام الإعدام في خمسة وعشرين منهم، لم يرمش لأحد طرف، ولم تمر الشفقة على قلوب الناظرين.

بعدئذ، بدأنا مرحلة جديدة مليئة بالنشاط والحماسة لإعادة إعمار البلاد الحبيبة، ورغم استمرار قِلّة السلع التي وُزّعَت بحصص محددة، لكن قبولنا لذلك كان حماسيًّا، وحتى وإن لم تُوزّع أبدًا، فقد كنا مؤمنين أنه بهذا الاقتصاد على حساب بطوننا نتمكن من إصلاح ما أفسده الألمان، وأن بعض الجوع ليس إلا مثقال ذرة نقدمها لبناء الوطن الحبيب، الذي لن نزهد حبه ما حيينا.

لعنة المبجّل على النازيين، وعاش الوطن حُرًّا نرويجيًّا اسكندنافيًا مطمئنًّا.

أيها السادة..

حُبُّ الوطن ليس كمثله حُبّ.

***

"يا إلهي".

قالتها "إليزابيث" وهي تحدّق في عيني، وأنا أحاول جاهدًا مجابهة سحر اللون الرمادي البرّاق في عينيها. أمسكَت يميني، وضغطَت عليها بقوّة وهي تقول:

- جعلتني أشعر بحبي الشديد لوطني. لن أنسَى لكَ هذا المعروف أبدًا، وبكل فخر أعترف لكَ بأنّ "كريغ" أصبح كاتبي المفضّل.

أخذتُ أنظر هنا وهناك لأجذب انتباهها قدر الإمكان. هززتُ رأسي أكثر من مرة مبتسمًا، وقلتُ:

- إذا كان الأمر هكذا، فكاتبكِ المفضّل يريد معرفة سر الكدمات على خدكِ الأيسر أسفل عينيكِ الجميلتين.

ضحكَت بصوت مرتفع على غير عادتها، ثم تركَت يدي قائلة:

- لا أعتقد أنه الوقت المناسب لذلك، لكنني أعدكَ أنه بات قريبًا.

أخذَت تتفحّص رأسي قبل قولها:

- على الرغم من حبي الشديد للون شعركَ الداكن، إلّا أنّ الأشقر أيضًا يليق بكَ. هل لي بمعرفة سبب تبديلك لون شعركَ للأشقر؟

- كأي ڤايكينج نبيل، عليّ تبديل لون شعري للأشقر، لأصبح أكثر شبهًا بالأسلاف. هكذا يفعل النبلاء في عشيرتي.

نظرَت إلى جواري وهي تعدل من وضع الوسادة، فوجدَت فأسًا قد صنعتُه بنفسي. أمسكَت به وهزّت رأسها متسائلة:

- لماذا هو هنا؟

- سأذهب لقتال الألمان.

- لماذا وقد انتهت الحرب؟

- لأنني لو لم أمت بشرف وأنا أقاتل سأذهب إلى أي مكان آخر في السماء البعيدة عدا ڤالهالا، وأقضي خلودي في صقيع "نيفلهايم" القارس، وأنا لا أريد الذهاب إلّا إلى ڤالهالا.

وضعَت الفأس على المنضدة، ثم وضعَت يديها في خصرها وقالت:

- لن تذهب إلى أي مكان.

نهضتُ وقلتُ حانقًا:

- ومن الذي سيمنعني؟

رفعَت حاجبها، وأشارت بسبابتها نحو الساعة. غيّم الصمت.. انحرف عقرب الساعات عند التاسعة، وعقرب الدقائق عند الثانية عشر.. أخذ البندول يتأرجح كعادته، ذات اليمين دقة وذات الشمال دقة، حتى انتهَت الدقات التسع.. بثقة قالت وهي تقف تضع يديها عند وسطها:

- موعد المهدئ.

نفختُ بحنق وأنا أقول: تبًا!

13

اليوم الثامن والثلاثون

منتصف الليل

أحسست "إليزابيث" تتسلل إلى الغرفة، ففتحت عيني أترقبها في الظلام. أشعلَت الضوء الخافت، فتجلَّت لي جميلة أنيقة في معطفها البُني الفاتح ذي الأزرار اللوزية، والقبعة الكبيرة المستديرة ذات اللون اللوزي والشريطة القرمزية. المعطف الذي لا يغطي ركبتيها، مع الحذاء الجمليّ اللامع ذي العنق الطويل، بدت فيهما كنجمة تليق بغلاف مجلة أزياء عالمية، وليست كشابة منطلقة تستعد للذهاب للسينما سيرًا على الأقدام، في طقس قارس البرودة. وضعت الكيس البلاستيكي الذي تحمله في يدها على المنضدة، وأخرجت منه معطفًا رجاليًا سميكًا من الجُوخ الإنجليزيّ أسود اللون، وحذاءً جلديًّا بُنّيًا طويل العنق، له رباط بلون العسل. توجّهَت نحوي، وبصوت خفيض تحدثت:

- أأنتَ يقظ؟

أجبتُها:

- لَم أنم لحظة.

أمسكَت بيدي، وبصوت غلّفه الفرح قالت:

- هيا بنا.

- إلى أين؟

قلتُها وأنا في حالة من عدم التصديق، فجذبَتني من ذراعي بدلال. أحسستُها امرأة أخرى، ليست "إليزابيث" التي اعتدتُ أن تكون، بدت أكثر أنوثة ومرحًا. قالت بنغمة رقيقة:

- لا شأن لكَ. ستدع لي نفسكَ تمامًا هذه الليلة، وأعدك، ستقضي أسعد لياليكَ في عاصمة الضباب.

ثمة شيء يريح نفسي لرؤية وجهها؛ لكن تألق عيناها الليلة تخطى راحة النفس، وألهب خيالي، وجعل الكلمات تختبئ مني وابتعلتُ لساني. كانت مثيرة إلى حد بعيد.. بعيد جدًا. قلتُ متلعثمًا:

- عزيزتي! أتعرفين.. على أي حال، فقط أن السؤال: إلى أين!

فتحَت الباب برفق، وقالت وهي ترمز بعينها:

- إذا كنتَ لا تثق بي فلا تتبعني.

ابتسمتُ.. أعشق قوتها وأحب منحها الإحساس بالسيطرة. أخذت المعطف أرتديه، وجلستُ على طرف السرير لألبس البوت، فارتكزَت على ركبتيها تساعدني على ربطه، وهي تنظر مباشرة في عينيّ، وتتعمّدَ لمس أصابعي بأناملها. وقالت:

- اخترتُ الرباط بنفسي، باللون البندقي في عينيكَ الجميلتين.

ازداد توتري، فتركتُها تكمل الربط. نهضَت، فنهضتُ بدوري.. ابتسمَت، وأضاءت على وجهها نظرة إعجاب رائعة. أحقًا أبدو رائعًا إلى هذه الدرجة في عينيها؟

- المعطف يليق بكَ، كأنه صُنع لأجلكَ. كذلك الـ "بوت" الأنيق. ملامحكَ جميلة لدرجة القسوة، حتى أنك تبدو كنبيل إنجليزي ذي نسب عريق.

ابتعدت قليًلا متجهة نحو المنضدة، والتقطت حقيبتها في مرح وهي تقول:

- استعد لنزهة مجنونة تحت الأمطار. كل ما ينقصكَ الآن القبعة.

عادَت إليّ سائرة متبطئة متدلّلة، حتى صارت أمامي.. وقريبة جدًا. أخرجت من الحقيبة البلاستيكية قبعة سوداء ذات شريطة بندقية، بلون البوت. رفعتها فوق رأسي بيديها معًا، فأغمضت عيني.. تمنيت لو أن بي العافية المناسبة لكل هذه الحياة المتدفقة في هذه الأنثى القوية. ضحكت ضحكة صغيرة، وجذبَت طرف القبعة للأسفل قليلًا، وبسرعة صفّفَت لحيتي الناعمة بأناملها الرقيقة، وقبّلَتني على خدي. فتحت عيني، فابتسمت في هدوء، وتحركت من مواجهتي إلى جواري، وتأبطَت ذراعي قائلة:

- أنتَ الآن مستعد تمامًا. هيا بنا أيها اللورد.

ابتسمت للمرة الأولى منذ دخولها، محاولًا أن أشاركها المرح. حركت جسدي بانحناءة بسيطة، وقلت لها:

- أمركِ سيدتي.

ابتسمت، وقرصتني في خدّي قائلة:

- أيها النبيل.. لا تنسَ أننا مجرد أوراق خريفية تطيّرها الريح.

ابتسمتُ ابتسامة جانبية وقلتُ لها:

- وأنا طوع أمر أيّ اتجاه تأخذني إليه الريح، طالما أني أصاحب ربة الرياح شخصيًا في رحلتي هذه.

***

الظلام يخيّم حولنا، فلا يتبيّن لنا شيءٌ إطلاقًا.. السواد وفقط، وكل شيء حالك! أضاءت مصباح هاتفها، وهي تسحبني من ذراعي. الممر ضيق جدًا، ولا يتسع لكلينا، وابتسامتها لا تفارق وجهها وهي تتابع المسير، بينما أنا عاقد الجبين، أغالب وهني، ولا أفهم ماذا يحدث، لكنني أثق بها تمام الثقة.

كان عقلي يمرح بعيدًا عن شغف قلبي، ويحادثني أن ثقتي في محلها، فماذا عساها تفعل بي. هي لن تأخذني إلى عصابة بيع الأعضاء بالطبع، فأعضائي أهلكها المرض. لن تذهب بي إلى غرفة

عتيقة في أحد الأوتيلات ڤيكتورية الطراز، وتدفعني بعنف على المخدع المتهالك لاغتصابي، فهي تدرك كذلك أن طموحها في تلك الساحة معي قتلته الكيمياء! أسب بيني وبين نفسي هذا العقل الذي لا ينفك يذكرني ويلح عليَّ بالحقائق في وقت أنا أحتاج حقًا لنسيانها. لا أُخفي على نفسي أنّ القلق يعتريني من قمة قبعتي إلى أسفل نعلي، ولكن على الأقل فليكن اتجاه هذا القلق أقل كآبة من أسر المرض والعجز والموت. أخذتُ أتحدث إلى نفسي: يا عزيزي لا تعبث مع الأنثى، فكما أخرجَت الأب القديم من النعيم؛ قادرة على إعادته إلى هناك مرة أخرى، وفي نفس الوقت لها القدرة المطلقة على إلقاء أمثالك في الجحيم! سر أيها المحظوظ مع جميلتك، التي يحسدك على رفقتها أعتى الشباب صحة وفحولة، ولا تجادلها فيما تفعل، ولا تتساءل؛ حذاري..! ها... عُلم.

فجأة، أخذتني حركة ورائي من حديث نفسي، وشعرت بلهيب يلفح قدمي. التفتُ أتفقد ما خلفي.. نظرتُ إلى قدمي، وانحنيت أتحسسها. توترت، وأرسلت ناظري أتفقَّد نهاية الرواق متوجِّسًا.. ورأيتُه! أصلع، دميم، ذو جسد شبحي متبخّر.. نفس العينين الداميتين ترمقانني بنظرة دبّت الرعشة في أوصالي. بصعوبة ابتلعتُ رضابي، وقد تجمدتُ في مكاني، منعزلًا عن كل شيء حولي. لكن لم يطل الأمر هذه المرة، فقد انتهى كل شيء عندما نقرت "إليزابيث" كتفي، لأعاود المسير، ناظرة إليَّ في تساؤل عن سبب توقفي. سرت خلفها مسحورًا، وهي تساعد خطوتي وتجذبني من يدي، وما هي إلا ثوانٍ وكُنا خارج مبنى المشفى.

تركتُ يدها، وتوقّفتُ أتنفس الصعداء. فتحتُ ذراعي عن آخرهما، أغمضتُ عيني، أملتُ رأسي قليلًا لأعطي الفرصة للأمطار المتساقطة أن ترتطم بوجهي. أنا أرافق الساحرة التي تخطفني من كل شيء.. كل شيء مهما بلغت قوته..! حالة من النشوة أخذتني، وببطء أخذتُ أدور وأدور.. تحوّلتُ إلى طفلٍ جُنّ باللعب تحت المطر. لم تشاركني الدوران، بل عقدَت ذراعيها إلى صدرها وتابعَتني بابتسامة أم! ربما انتابها الفخر لأنها السبب في وصولي إلى تلك الحالة المجنونة. تركَتني لدقيقة أخرى وهي لا زالت تراقبني باستمتاع، ثم أخذَت قرارها -كأي أم عاقلة- وجذبَتني من ذراعي دون أن تتفوه بكلمة. استسلمتُ لها كطفل مهذب، ولم أقاومها، فمضَت قُدمًا وأنا وذراعي في أثرها. إنّ ما تفعله في هذه اللحظة قد يكلّفها وظيفتها، فتقوم مع النهار لتجد نفسها بلا عمل. لكنها الأنثى، تعلم ما تفعل، وعليّ ألّا أسأل.. عليّ فقط أن أتبعها.

"إليزابيث" الحسناء، البيضاء بحق، هذه الفاتنة الأنغليكية، هي الوحيدة من بين سيرافيم الرحمة التي علمتني الكثير والكثير عن مكنونات المفاهيم الإنسانية الدفينة في أحراش أولئك الذين ينشدون ترانيم الحب.. أولئك القاطنون مصارعين الخوف تارة، والجوع تارة، والفقر تارة تلو تارة، بين الردهات الضيقة القابعة خلف المنازل الفخمة العتيقة الطرز، في مبانيهم المختلفة تمامًا، المتراصة في ازدحام كئيب، على جنبات باردة متنحية عن الواجهة الثرية للعاصمة!

في تلك الليلة، تعلّمت على يدها كيف أن جنون العاشقين بالشتاء ليس مشهدًا سينيمائيًا خياليًا، بل هو انجذاب لا تملك القلوب المأخوذة بالغرام أن تقاومه. ذبتُ بها عشقا، وأدمن جسدي صقيع عاصمة الضباب والعشاق!

14

اليوم التاسع والثلاثون

الواحدة بعد منتصف الليل

بثقة فتحَت الباب، دخلَت، فدخلتُ خلفها.. أنارت إضاءة خافتة، بثت الرومانسية في أجواء المكان. أخذتُ أتفقّده بحذرٍ! قبل أن أسألها:

- أهذا منزلكِ؟

ابتسمَت وهي تضع راحتيها على كتفي، ونظرَت في عيني قائلة:

- بالطبع لا. أنا أعيش في نوتنغهام، هذا كهفي وليس منزلي. استأجرتُ هذه الشقة منذ شهرين للهروب من كل شيء.

- أمان؟

- ممم، أتشعر بالقلق؟

- جدًا.

- لا تكترث بأي شيء أيا كان! وافعل ما يجعلكَ سعيدًا يا عزيزي.

- فعلًا؟

- كل شيء على ما يرام، لا تقلق.

- سأحاول.

تركتني وهي تقول:

- هيا، احسب عشر دقائق على ساعتكَ، وسيكون الطعام جاهزًا.

توقّفَت وألقَت إليّ بنظرة حانية وهي تقول:

- اخلع عنكَ معطفكَ، اعتبر نفسك في بيتكَ.

أعجبني اقتراحها، خلعتُ المعطف، بينما ذهبَت لتشغيل الغرامافون. تبدو أنها شغوفة باقتناء الأشياء الثمينة، بدا غرامافونها عتيقًا فاخرًا. أدارت إحدى أسطواناتها، فانبعثَت الموسيقى الإنجليزية إلى أسماعي.. مقطوعة رائعة للفريق الشهير (Pink Floyd). أملتُ رأسي مستعذبًا، قبلما أقول:

- اختيارٌ موفّق عزيزتي، (Shine On You Crazy Diamond) مفضّلتي للفريق.

أتاني صوتها من الداخل بنغمة فرحة:

- أعرف ما تفضّله أكثر من نفسكَ، عزيزي.

- حقًا، نحن ندين بالكثير للمُوسيقى.. أكثر مما نعتقِد.

- استعد يا أخ "كافكا" دقائق ويكون الطعام أمامكَ.

شعرتُ باتساع ابتسامتي أكثر. هي تعرف "كافكا"، وذاك الرجل، بكل تداعيات حياته يعني لي ما هو أكثر من مجرد كاتب مميز. مددت جسدي على الأريكة مسترخيًا، وأغمضتُ عيني لأستمتع أكثر بالغناء. اندمجت معهم، حتى أنني أخذتُ أُدندن معهم بالكلمات، مرددًا (Now there's a look in your eyes.. Like black holes in the sky).

خرجَت تصفّق لي وقالت في حماس صادق:

- ما هذا؟! أنت مطرب مبدع، صدقني. أقسم أني استحسنتُها بصوتكَ أكثر من صوت (David Gilmore) بكثير.

- شكرًا عزيزتي، ليس لهذا الحد.

ردت بإصرار وهي تدب قدميها في الأرض:

- بل إلى هذا الحد، أنا أعرف جيدًا ما أقول.

ابتسمت من قلبي، وتابعتها تعود إلى مطبخها مرة أخرى. دقائق قليلة، وخرجَت تحمل أطباق الطعام.

- الجميع هنا يفضّلون "ديڤيد غيلمور".

- مفضّلي هو "روجر ووترز" (Roger Waters).

قالت وهي تضع الأطباق على المائدة:

- لماذا؟

- لأنه أكثر المساندين لقضيّتنا.

قالت وهي تتناول الطعام:

- ممم، تفضّله ليس لفنه، بل لأنّه يتفق معك في قضية سياسية. أعتقد أنها مفاضلة غير عادلة فنيًّا. لا علينا.. ها، أعتقد أنكَ جائع، أليس كذلك؟

- كذلك.

- لماذا لا تأكل إذن.. هيا، كفاك كسلًا على الأريكة.

جرَّت المائدة لتقرّبها من الأريكة، فاعتدلت أجلس قبالتها، بينما أتت لنفسها بكرسي، وجلست مواجهة لي وشرعت في الأكل.

لماذا لا أشعر بالشهيّة رغم الجوع؟ قطعتُ بيدي من الخبز، لكن لم أستطع تناوله. أتخم رأسي بالتساؤلات. بدا الطعام شهيًا رغم بساطته.. رائحة أسماك التونة ملأَت أنفي، لكن لماذا تذكرت الأسماك في الحوض الصغير بحجرتي؟ قطعة الجبن البيضاء المستطيلة في الطبق الآخر

تذكرني بفراشي الأبيض بالمستشفى. شطائر الهمبورغر بدَت مغرية، تفوح رائحتها شهية، ولكنني لا آكل لحم الخنزير.. هي لا تعرف ذلك بالطبع، ولا أريد إفساد احتفالها بي. أكلتُ قطعة الخبز، وتناولتُ رقائق البطاطس، وأنا أراقبها تتناول الطعام بشهية وتركيز. ابتسمتُ لأنها على راحتها ولا تتكلّف، مبهجة هي "إليزابيث" وبالغة الصفاء، قالت دون أن تنظر إليّ:

- ماذا بكَ؟

أجبتُها:

- لماذا أشعر دائمًا بالوحدة؟

رفعت عينيها إليَّ، دون أن تتوقف عن الأكل. قالت بابتسامة:

- لأنكَ لم تعد تثق فيمن حولكَ.

أومأت معجبًا بإجابتها..

- هذا صحيح.

- أتعرف، أن تكون وحيدًا، هذا ليس حسنًا، ولا سيئًا. هذا فقط واقع يمكنك أن تختار أن تجعله سعيدًا أو محزنًا.

هاجت نفسي، حتى شعرت بحرارة تتوهج في صدري.. قلت في انفعال لم أفلح في كبحه، متخاذلًا تمامًا عن الحفاظ على أجواء البهجة والرومانسية التي أرهقت نفسها لإعدادها من أجلي:

- أنا أنقصني.. أفتقدني.. أشتاقني.. أحتاجني، وبشدّة.

عدلَت عن قضم قطعة الهمبورغر وأعادتها إلى الطبق، ونظرَت إليّ في حنان لكأنه يحتضنني:

- وأنا، ألا تشتاق إليّ؟

- لا أشتاق إليكِ كثيرًا.. فقط عندما أتنفس.

نهضَت عن كرسيها، ودارت حول المائدة الصغيرة، ثم جلست بجواري.. بجواري لدرجة الالتصاق بي. شعرت بلهيب يجتاحني، وبالتأكيد رأت هي ذلك بوضوح، فقرّبَت شفتيها من شفتيّ، في ثقة. فوجئتُ! صدمت المفاجأة عقلي ووعيي.. صعقت كل تساؤلاتي وأفكاري.. أذابتني رطوبة قبلتها في ماء الحياة! على شفتيها كان الجواب الشافي الكافي.. فعلَتها ابنة الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس. همست:

- أحبكَ.. أيها الشرقي، جعلتني أهيم بك.. هذا هو جوابي على تساؤلات عينيكَ. العين بئر المحبين، إن فاض رواكَ، وإن جَفّ احتواكَ. انظر في عيني، فإنها تفتح شبابيك قلبي لك، لتطل عليه كما يطل عليك.

آه، لقد فعل بي الكتمان ما فعل. أين عزمي ألّا أصارحها؟ ألّا أفاتحها؟.. فعلَت هي ما لم يكن بحسباني، وتغلغلَت بكياني أكثر مما يحدثني خيالي. أنا الآن أثبتُّ أنني أقل منها جرأة وجسارة، أي خزي ألمّ بي؟.. شجّعتُ نفسي، نهضتُ من مكاني، ونطقتُها:

- أحبكِ "إليزابيث".. أحبكِ يا ابنة نوتنغهام.

صاحت:

- فلماذا قمت؟ لماذا تبتعد والعشاق يجب أن يقتبروا؟!

قامت من مكانها، وأتتني.. التقت عيوننا للحظة، ثم ألقت بنفسها بين ذراعيّ، وتعلّقَت بعنقي، وتلاقت شفاهنا في قبلة طويلة، على أثرها أخذتُ أدور بها.

فجأة، ركلتني بقدمها في ساقي، فتركت شفتيها وتأوهت وأنا أنظر إليها في دهشة. توقّفَت أمامي وهي تعضّ على شفتيها، وضربتني بقبضتها في صدري، وعقدَت جبينها وهي تقول:

- اخرس أيها الكاذب، إنكَ تحب "غازيتا".

لم أتمالك نفسي من الضحك.. بل القهقهة عاليًا. اقتربتُ منها، فدفعتني بدلال، ولكنني لم أستسلم، جذبتُها إلى حضني وأنا أقول:

- شششش، اخرسي أنتِ، وعانقيني لبعض الوقت.

أراحت رأسها على صدري وهي تقول:

- لماذا؟

- لأنَّ العناق يزيح الهمّ، ويذيب الخلافات، ويهدئ من روع المتغطرسات، الجميلات، المنفعلات،

ضحكت فأكملتُ:

- المُدَلّلات، الفاتنات، البيضاوات.. يا ابنة الضباب يا حبيبتي.

رفعت وجهها تنظر في عيني، فرفعت يدي أتحسس وجهها بأناملي. توقفتُ عند تلك الكدمة التي لا تختفي، ولا أعرف سببها. أغمضَت عينيها، وتنهدَت، فتنهدتُ أيضا، ثم سألتها:

- ألن تخبريني سبب تلك الكدمات سيرافي؟

جذبتني من ذراعي لنجلس على الأريكة، ثم أراحَت رأسها إلى صدري. وبعد تنهيدة عميقة، قالت:

- زوجي عربيدٌ، شغوفٌ بالنساء، ملول يتنقّل من تلك إلى أخرى، ومن أخرى إلى أخريات. يصرف كل ما يجنيه من مالٍ لشراء الخمر أو استئجار المومسات. لم أهنأ بالعيش معه أبدًا، فهو متزوج من الخمر بدلًا عني، ومتبنٍ للبغايا بدلًا عن الأبناء. ذهبَت الخمر بعقله، وذهبَت الداعرات بماله، حتى أفلس، فانفضضن من حوله. حتى أصدقاؤه تركوه، وأصبح وحيدًا بلا عملٍ أو مال. كنتُ في الكثير من الأحيان أشتاق لعِناقه، لكنّه كان يمنعني، حتّى اعتدتُ منعه، وتكيّفتُ على العيش من دونه، كما اعتاد هو على العيش دون زوجة، أو أُسرة، أو حتّى قلب. أتعرف، عند عودته كل ليلة بعد منتصف الليل، وفور دخوله، وبدلًا من إلقاء تحية المساء، يحييني بقبضته في وجهي.

- تبًا له! وماذا كنتِ تفعلين؟

هزت كتفيها وقالت:

- وماذا عساي أن أفعل؟، أحضّر له العشاء، فيشكرني بلكمة أخرى، وأذهب إلى النوم.

- سحقًا! وإلى متى تظلين هكذا؟

تنهّدَت وهي تحتضنني قائلة:

- الليلة فقط قررتُ ألّا أعود إلى المنزل. سأظلّ ههنا، حيث الأمان، وحيث لا ألم.

- هذا ليس إنسانًا. كيف لسيرافٍ مثلكِ أن ترضى بالعيش مع مثل هذا الكروب الساقط؟

نظرَت إليّ وهي تغوص في عيني، وقالت بتحدٍ:

- لا تقلق حبيبي. الليلة أعلن السيراف ثورته على الكروب الساقط. لن يستطيع أذيّتي مرة أخرى، وسأوقفه عند حدّه، هذا العالم لا يتسع لكلينا، فإما أن أنتصر عليه، أو يقتلني.

خفق قلبي، فاحتضنتها بقوة، وأنا أقول لها بيقين:

- لا، ستنتصرين. يجب عليكِ الانتصار في تلك المعركة.

- أعدكَ أنّني سأنتصر. هذا هو عالمنا نحن، ولا مكان فيه للساقطين.

عانقتني أحرّ عناق احتواني في حياتي كلها على الإطلاق. شعرتُ بالدفء يعتريني كليًا، آه "إليزابيث"، ما هذه الراحة التي تعتريني؟! لا أستطع وصفكِ، لكنّني أُجزم أنكِ الحنان نفسه. تغيّرَت حياتي حال ظهوركِ، أعدكِ أنّني سأبذل ما بوسعي لتغيير نفسي -نفسي المعذبة المثقلة بالآثام- أعلم أنني آثم، ولا أنكر ذلك، فإذا كان إثمُ "هيوسفوروس" أعظم الآثام وأوّلها، فإثمي أيضًا عظيم.

***

قام المعاند "هيوسفوروس" بأعظم كارثة حَلّت بتاريخ الخليقة، يوم تكبّرَ وأبَى أن يتريّث ليحصل على كامل المعرفة. تمرّد وثار، وانتشرَت ثورته في أرجاء السماوات، وانضم إليه نحو ثلث الجند من الكَروبيم، وأعلَن الحربَ على السماء! وامتدَت إلى الأرض وما تزال مستمرّة إلى اليوم، أتباعه لا يزالون يبذلون من الجهد أقصاه لإسقاط البشر كما سقطوا، ولا يزالون يُسقِطون الكثير والكثير من بني الإنسان في شراكهم، وتتوالى السقطات ويستمر السقوط....

15

ظُهر اليوم الأربعين

لا تأكل التفاح.

لا تطرد الغراب.

لا تستفز الذئب.

لا تطعم الكلب الحالِك.

لا تقرب الحيّة.

لا تشهر الفأس في وجه أخيكَ.

لا تنسى تعاليم الأسلاف.

لا تكترث بأولئك الحمقى، الذين لا يمكنهم تمييز النور الذهبي المشعّ القادم من السماء البعيدة، حتى لو كان فوق رؤوسهم. النور فوق كل شيء، يسطع فيغمرنا بالدفء.

"واأسفاه على تلك الكائنات التعيسة التي خُلقت من دون أرواح"، أليس هذا بقول سكسونيّ؟

اللعنة! فقط ثلاث لفافاتٍ من التبغ هي كل ما أملك! لا زالت لديّ ليلة طويلة لم تبدأ بعد. من يُعينني على الكتابة إذن؟

- لا عليكَ بالتبغ، سأوفر لكَ كل التبغ الذي تحتاج.

قالها البريطاني بهدوء. نظرتُ صوب عينيه الزرقاوين مباشرة قائلًا:

- كلنا حاصلون على درجة الماچستير في التلاعب بالكلمات، ودرجة الدكتوراه في النفاق، ونسعى جميعًا لنيل درجة الأستاذية في الانبطاح.. التعريض العريض العرضي في علم النفاق المرضي.

ضحكت مما أقول، ثم أكملت:

- لكنك يا صديقي لم تكمل الدراسات العليا بعد، حتى تحصل على شرف صعود هذا السلم الاجتماعي، الإلزامي للنجاح في كل المجالات الحياتية قاطبة: من نافق وجد، ومن عرّض حصد!

- معذرة سيدي، لم أفهم ماذا تقصد!

- هكذا يتحدّث الكُتّاب. إذا كان الموز هو غذاء العباقرة؛ فالتبغ رفيقهم. أشكركَ على التبغ.

وضع علبة نحاسية مذهبة أمامي فوق المنضدة، وفتحها، لأجدها مليئة عن آخرها باللفافات الجاهزة. أشعلتُ لفافة، ونفثتُ الدخان صوب السماء، لأصنع دائرة مفرغة، قلتُ ولا زلتُ أنظر صوبها، وأراقب إنصاته بشغف:

- في النصف الأول من الليل، أذهب إلى المقهى الذي أداوم على الذهاب إليه منذ سنوات. أقضي نصف نصف الليل الأول ناثرًا الأوراق فوق طاولتي، أُجهز على نحو ثلاثين لفافة من التبغ، ما بين صراع الأفكار التي تصارع الدخان، وبين قضم أظافري وسِنّ قلمي الرصاص.

أمّا في النصف الثاني لنصف الليل الأول، تكون الأفكار قد جاءت، بعد القضاء على قدحين من القهوة وثلاثة أكواب من الشاي. أدفع الحساب، وأترك القليل من البقشيش للنادل، ثم أذهب، فأقضي نصف الليل الثاني أصارع الأرق. أتغلّب عليه بالتفكير في كيفية الحصول على ثلاثين لفافة من التبغ قبل الغروب، وأظلّ هكذا حتى مطلع الفجر، فأنتصر على الليل وأحتفل بانتصاري حتى الشروق بتقلّبي على الفراش أحايل النوم وألعن الصداع.

نفثت الدخان وأكملت:

بلدتي ضرَبت بكل قوانين وتقاليد الدنيا وعاداتها مؤخرة الحائط العريضة. لهذا السبب أنا لا أعمل في أية وظيفة حكومية، فالوظائف الشاغرة تكون فقط من نصيب أبناء العائلات الميسورة الحال.. يا للعجب! إذا كانت عائلتي ذات حال ميسورة، فلماذا أحاول الحصول على وظيفة من الأساس؟! المهم، أكتب المقالات وأرسلها لعدة جرائد، وبذلك أستطيع الحصول على لفافات التبغ قبل المغيب، ولا أحمل على عاتقي هَم الكتابة، فإذا جاء التبغ؛ هروَلَت الأفكار تتحرش بأعماق أعماق رأسك.

- ما هي ماهيتكَ أيها الفيلسوف؟

- أي فيلسوف؟!، الحقيقة جميع هوياتنا ممزقة. كلنا مشوهون من الداخل، ولكن الفارق إلى أي حد يصل تمدد تشوهك.. أنا لست فيلسوفًا، وإنما مجرد مريض بالغربة، بين مخلوقات تظن أنها طبيعية! ربما لا أستحق الحياة على ظهر هذا الكوكب! أوقن أن كلنا مرضى نفسيين، وإلى الآن لا يوجد دواء يشفينا إلّا الموت. تسألني عن ماهيتي.. وُلِدتُ في نيسان، لكني لستُ أسطورة إلّا في سوء الحظ، لذا فأنا أسوأ مما تتوقّع وأعظم مما تتخيّل.

***

"لا تستظل بظل شجرة بال على جذعها كل من عبر السبيل، فإن أظلّتكَ بظلها، فلسوف تؤذيكَ رائحتها. إنه لمن الأفضل لكَ أن تضع البذور بنفسكَ في تربة صالحة، ثم ترقبها وهي تكبر أمامكَ يومًا بعد يوم. أي فخر هذا الذي ستحصد بعدئذ؟" هذي نصيحتي لكَ أيها البريطاني المسكين.

أحسن القبطان عند اتخاذه القرار الصائب. كان علينا إلقاء القمامة خارج السفينة مبكرًا، حتى نصل بأمان. لا بأس، يقع اللوم علينا جميعًا، لقد اكتشفنا العفن متأخرًا. لكن كل ما يؤرقني وكلما تخيّلته تجشأتُ من الضحك، هو كيف لأسماك القرش أن تتحمّل عفنهم؟ هل ستتقيأ عندما تشمّ رائحتهم؟ هاهاها، حقا أشفق على تلك الكائنات البحرية التي ستلتقي بهم في القاع، فالقاع مزدحم مزدحم، مزدحم يا.... لقد تذكرت، كان الأمر أكثر متعة من إخراج الريح الفاسد من الجسد.

لم يفهم من قولي شيئًا فسأل:

- ماذا عن الزواج أيها الشرقي المثير للجدل؟

ألقى بسؤاله وتأهّب للتدوين..

- يقول المثل الدانمركي: "الزوج الأصم والزوجة العمياء هما أسعد الأزواج".

- وماذا عن العشق؟

ضيّقتُ حدقتيّ مجيبًا على تساؤله:

- خدعوك من حدثوك عن عشق الروح الأزلي، وعن فناء عشق الجسد. في الوقت الراهن لا يحضرني تعريف العشق.. ولكن دومًا تحضرني سمات العاشق. إذا أحب عشق، وإذا تحدث صدق، وإذا وعد أوفى، وإذا اؤتمن صان، وإذا خاصم كتم، وإذا هجر بالخير ذكر. أما عن عالم الأرواح فما أنا بروحاني. عشق الأجساد حق، تراه بين الكلاب مرارًا في الطرقات، كما تراه في نبلاء قومك. كن إنسانًا، واعشق كما شئتَ، لكن تعقّل.

- ما رأيكَ في النساء؟

- إذا أُتخم رأسك بتفاصيل النساء فأهلًا بكَ في المرحلة الكلابية من العمر! نباح فلهاث، ثم حكة فرجم.

أخذ يُدوّن كل ما أقول بسرعة غريبة وهو يتحفز للسؤال التالي:

- ما هو مفهوم الحُب من وجهة نظركَ.. في مثل حالتكما؟

ابتسمتُ وأنا أعي تمامًا خبث سؤاله، لكنني أجبته بكل ثقة:

- الحبُ الذي بيننا، أبدًا لن تستطيع استيعابه أيها البريطانيّ الخبيث. هو الحبُ الذي لا يجبرها على الانسلاخ من عقيدتها لتتبع عقيدتي، فلها حرية معتقدها، ويجعلني الحب أساعدها أن تنتظم في الذهاب إلى المعبد. الحبُ بيننا هو ألّا أجعلها -ولا تجعلني- نشعر لوهلة باختلاف عقيدتنا، وفقط أحب كل ما تحبه وأبغض كل ما تبغض، دون المساس بصلب عقيدة كلٍ منّا. الحبُ هو ألّا أفعل عكس ما أقول لكَ.. أنا حقًا أفعل كل ما قلتُ لكَ دون تزييف.

- أيحبُّ الرجل بصدق؟

لم أتمالك نفسي من القهقهة كالبابون. رفع حاجبيه، متعجبًا كعادته من ردود أفعالي، التي دومًا تأتي غير توقعه، والنتيجة أني أفحمه. فكرت لحظة.. أهو حقًا يسأل عن الحب والنساء، أم يتسلل بسؤاله لمناطق أكثر وعورة؟، على أي حال، فلسؤاله عندي هذه المرة إجابة محيّرة وليست كافية:

- لقلب الرجل يا عزيزي أربع حجرات، تمامًا كالمؤجّر، يختار من يشاء لسُكنى ما يملك، في كل حجرة امرأة، وله أن يختار من يشاء متى شاء. الرجل دائمًا يبحث عن شيء يكمل به نقصانه، وفي اعتقاده أنه لا شيء يمكن إكمال كل منقوص لديه إلّا امرأة. يبحث ويبحث.. يجدها، أو هكذا يعتقد، تبهره بجمالها وجاذبيتها فيقول في نفسه "هذه هي ولا سواها"، يتعاملان، يتحاوران، يختلفان، يتشاجران، يتنافران، فيعود إلى سيرته الأولى يشعر بالنقصان، ثم يبحث عن أخرى. تدور الدوائر وتدور، ولن يجد الرجل مبتغاه في المرأة الكاملة المتكاملة المكمّلة له حتى يموت، وتظل دائمًا امرأة واحدة لا تكفي.

تنهّد وهو يلقي بسؤاله:

- ألا يزال هناك أصدقاء مخلصون؟

- قالت لي زوجتي الحبيبة ذات مرة: "لا تُعلّق نفسكَ بأحد إلى هذه الدرجة المستفزة، لا مكان للإخلاص في زماننا الأغبر هذا، والناس ليس لهم مثل القلب الذي تملُك". وقتها ما كان جوابي لها إلّا ابتسامة ممتعضة، وزفرة سيجار كوبيّ في وجهها، كنتُ أقصد بها أن تسعل بهذه الشدة. قلتُ لها ولم أنظر إليها: "مسكينة عزيزتي، لو طبّقتُ تلكَ النظرية الخرقاء التي تملكين، لكنتِ أنتِ أول من أصابه الضرر".

وقبل أن يُغلق مذكرته، باغتُّه:

- يقول المثل الروسيّ: "كل الأشياء تعصي أولًا قبل أن تلين". خذلتك، اختر غيرها. لكن عليكَ أن تعي أن "غيرها" ستخذلك هي الأخرى. هنا يجب أن تتصرف ككروبٍ ساقط أيها البريطاني الغبيّ.

عقد حاجبيه متسائلًا: "ماذا تعني؟"

جاوبتُه:

- الفارِقُ بين "كروبيم الإنس" و"سيرافيم الإنس"، هو أن "سيرافيم الإنس" في السر كروبيم، سيرافيم في العَلَن، وأنتَ بالطبع تعلم ما يجب على الكروب فعله يا عزيزي.

ظل على حاله كالأبله: "حقيقة لم أفهم مقصدكَ".

- يقول المثل: "قبل أن تحب اسأل حبيبتكَ متى موعد الخيانة؟". أما إذا شعرتَ بخيانتها، فاعمل بالحكمة الأوكرانية: "لا تسأل المرأة عن الحقيقة". الأفضل لك كإنسان تبحث عن السعادة، أن تتعايش مع الواقع وتستمتع بحياتكَ كما تبدو على السطح، دون الحفر وإخراج المدفون العفِن. أما إذا وجدت نفسك لا تستطيع تحمّل رؤيتها تحيا مع غيركَ؛ فاقتلها. ولكن تذكّر أنّ القانون لا يحمي العاشقين. أشفق عليكَ أيها العاشق حتى الثمالة. على أي حال، النهايات السعيدة مصيرها النسيان الحتمي، أما النهايات الدراماتيكية فباقية إلى الأبد، فعساك إن لم تفز بسعادة العشق، تحصد الخلود.

فتح مذكرته مرة أخرى، واستعد للكتابة قائلًا:

- في مثل هذه الحالة، ماذا عليّ أن أفعل؟ كيف -في ظنك- أكسب قلب امرأة؟

أشعلتُ لفافة أخرى وتحدثتُ إليه بهدوء:

- عندما تثرثر، استمع لها قدر ما أمكنك، وكلما فرغ كأسها زدها. ستزداد ثرثرتها أكثر، لا تصدق كل ما تسمع، ولا تسمع كل ما تقول، فقط احرص أن تبدو متنبهًا لها، ولا تضطرب يا عزيزي. لن تحتمل ثقل رأسها المتخم بالتناقضات الهلامية، وستسقط بعد الكأس العاشر منكبة على وجهها، كل ما عليك فعله هو أن تتركها وتشرع في عملك، ولا تنسَ! لا تعدل من وضع رأسها على الأرض، فهذا سيزيد من عدد ساعات نومها وشخيرها المستمر، ألا يروقكَ ذلك؟

ضحك البريطاني، وقبل أن يتفوّه باغتُّه بقولي:

- لا تكن كروبًا ساقطًا.. كن سيرافًا ناسكًا. انتهت مقابلة اليوم، أشكركَ مرة أخرى على التبغ.

16

اليوم الحادي والأربعون

على حين غرة أيقظتني التكّات السريعة المزعجة من سُباتي. أمعنتُ النظر إلى عقربي الساعة.. ذُهلتُ..! ما الذي يحدث لهما؟! إنهما يدوران بسرعة غريبة إلى الخلف! أفزعني البندول المتأرجح بشكل جنوني! التفتُّ، فرأيتُ ظهر أحدهم راكعًا أمام المنضدة؛ هل ينظف الأرضية؟! بصوت مرتجف قلتُ: "صباح الخير". لم تأتني إجابة! كررتُها، دون استجابة.

- "إليزابيث؟"

اعتدل والتفت إليّ.. إنه أحد الممرضين. سألتُه:

- أين إليزابيث؟ لماذا لم تأتِ اليوم؟ أهي بخير؟

اقترب مني دون أن يتفوّه بشيء. حدّق فيّ بعينين جاحظتين اشتعلتا باللهيب! أصابني شيء ما جمّدني في موضعي شللًا وبكمًا. شعرتُ بجسدي يصّعّد عن موضعي بالفراش! ازدادت التكّات ارتفاعًا وجلبة، والعقربان لا يزالان يتراجعان بسرعة أكبر! ووعيي يتراجع مستسلمًا لغيبوبتي....

***

استعدتُ وعيي في مكان آخر، لا أدري أين! نهضتُ عن الأرضية العشبية ذات الملمس الغريب أسفل مني، فتراءت لي على مد البصر بوابة عظيمة شاهقة، سرتُ إليها وأمسكتُ بقضبانها. حاولتُ فتحها ولم تتحرك! مغلقة بإحكام. خلفي لم أجد إلّا الأفق يمتد إلى ما لا نهاية!

"أُنظر إلى تلك الشجرة"

أتاني الصوت من شمالي. التفتُ، لأجد الممرض اللعين قاطب الجبين، ينظر نحو الشجرة البعيدة. رأيتُ رجلًا وامرأة ضخمين يجريان نحوها من بعيد. وصلني صوت ضحكاتهما من تلك المسافة. أمعنتُ النظر، فإذ بتنّين أقرَن عملاق عظيم الجناحين تبعث ألوانه على البهجة يحط قربهما. مسحَت المرأة على عنقه الفاره بتودد. حملها، فأخذت تضحك. ارتطمَت رأسها بثمار تبرز من الأفرع، فمدَت يدها وقطفَت إحداها، وألقتها إلى الرجل بالأسفل. استحسن رائحتها، فقضم قضمة، وأغمض عينيه متلذذًا...

"يُزجّ بجُلّ الخليقة في الجحيم لأجل قضمة؟! أتصدق هذا الهراء؟!" هكذا همس في أذني، فلم ألتفت له.

نزلت المرأة عن عنق التنين، فأقلع راحلًا. قضمَت هي الأخرى قضمة. أعجبها مذاقها كما بدا عليها، وعانقته بفرحة عارمة، وأخذا يتضاحكان.

لحظات حتى تعرّيا! أبعدتُ ناظري، لا أريد رؤية المزيد. همس في أذني: "أكانت شهيّة إلى حد التعرّي؟!"

صرخات ألمٍ مرتفعة اخترقت مسامعي. توجهتُ صوب مصدرها، فإذ بالتنّين طريح الأرض يتلوى من شدة الألم، غارقًا في دمائه، يتأوه لفقده جناحيه وقوائمه! حتى القرنان الكبيران فوق رأسه لا أثر لوجودهما إلّا بعض بقع داكنة من الدماء.. ثم تحوّل إلى أفعى دميمة أخذت تحبو متألمة؟!

انبعث من العدم سيراف -أقوى كائنات السماء البعيدة- عظيم ذي ستة أجنحة، بيمينه سيفٌ لامعٌ، وبيساره درعٌ فضيٌّ مستدير. أطاح بالممرض بعيدًا بضربة واحدة! تبدّل شكله إلى هيئة كروبيّة داكنة، نبتت له أربعة أجنحة حلّق بهما مرتفعًا عن الأرض، وفتح ذراعيه على مصراعيهما. على وجه السرعة أتاه سيف ودرع، بقوّة أمسك بهما، وبدأ معركته....

على مد البصر، يعج الأفق بالمتقاتلين. أعداد لا حصر لها بين الفئتين، سداسية الأجنحة من السيرافيم ورباعية الأجنحة من الكروبيم. ويلي! إذن أنا لستُ على أرضنا؟!

صليل السيوف في حرب السماوات البعيدة ليس كمثله على الأرض. أُضرمَت النيران على أثر قعقعتها في عِليين، ملأَت الثورة أرجاءها، واستمرّت الحرب دون هوادة، وظَلّ السيراف العظيم -علمتُ من تلقاء نفسي أنّه "هارّوش"- وجنده يقاتلون المُعانِد وأتباعه لأجل مبجلنا. صاح في جنده: "إننا نحارب أجناد الشرّ العُصاة، نصارع مملكة الظلمة لأجل النور". بجسارة قاتلوا الكَروبيم المتمردين.

هذا الكروب قبل أن يتمرّد كان فائق الجمال، بل أجمل ما صنع "آتوميس"، ومِن أسمى الكروبيم؛ كـ"هارّوش" رئيس السيرافيم وباقي الرؤساء الأربعة، ولكنّه تكبَّر، فطمع.

كيف انحرفتَ عن قدرات طبيعتكَ أيها العنيد؟ أأردتَ أن تضيف قدرات المُبجّل إلى قدراتك؟! أتريد أن تصبح كالمعظّم "آتوميس" واستكبرت أن تصير خادمًا له؟! لقد أخطأتَ.. لقد أسقطت عنك رتبتكَ. خدعك غرورك بالظن أنّ مجدكَ ذاتي ونسيت أنما هو مكتسب منه. كيف تسوّل لكَ نفسك أنه بإمكانك أن تصير مثله، ولست إلا مخلوقًا كسائر المخلوقات؟ أو حتى لست كسائرهم وترى نفسك الأفضل، ولكنك أمام المبجل مجرد أحدهم.. مخلوق لا أكثر، وعليك الامتثال.

سقط الكروب.. وبسقوطه أغوى الجميع.. وبشتّى الطرق حاول إسقاطهم.. وربما نجح في ذلك!

وضعَت الحرب أوزارها في عِليين، وكسر الأبرار شوكة الأشرار.. هزموهم وطرحوهم، وطردوهم من السماء البعيدة إلى الأرض. وقبل إسقاط الكَروب المنبسط، أمسك "هارّوش" بأجنحته الأربعة، وطرحه صاغرًا ذليلًا عند الجناحين اللذَيْن يغطيان قدميه. ضغط بقدمه على صدره بأقصى قوّة، وثبّتَه أرضًا. لم يستطع العنيد أن يتحرّك، فقوّته لن تقدر على مجابهة قوّة رئيس جند السماوات. اقترب منه، وأزاح عن وجهه جناحيه العظيمين، لأنّه ليس في حضرة "آتوميس". صاح في وجهه الجميل، ليتبدّل على الفور لوجه أفعى قبيحة دميمة ذات قرنين...!

لماذا تمرّدت أيها العنيد، وقد كنتَ خاتم الكمال، الكامل بالجمال، الملآن بالحكمة؟ كنتَ تنعم في النعيم بكل شيء.. على الجبل المقدس كنتَ.. بين حجارة النار تمشّيتَ. كنتَ كاملًا في طرقكَ من يوم خُلقتَ حتى وُجد فيك إثم يوم تمرّدك. ارتفع قلبكَ لبهجتكَ، أفسدتَ حكمتكَ لأجل بهائكَ. أسمع فحيحكَ في قلبكَ، تريد عبور مرتفعات السحاب، والصعود إلى قمة السماوات، ورفع عرشكَ فوق

كل الكواكب، لتجلس على جبل الاجتماع في أقصى الشمال. لكنكَ انحدرتَ إلى الهاوية، إلى أسافل الجُب. لن أسمح لكَ أن تصير مثل العليّ يا لعين. يا مَن لا تشعر بخطئكَ، ولم ترجع عن سقطتكَ وتطلب التوبة إلى "آتوميس"، بل عاندته وتقاومه، حتى صار اسمكَ "المعاند" منذ تلك اللحظة إلى دينونة اليوم الرهيب. فتُطرَح وتُباد أيها الكَروب الْمُظَلِّلُ من بين حجارة النار.

بسط أجنحته الستة ورفرفها بعنفوان، وأمسك الساقط بقوّة بين يديه.. أحرق أجنحته، ثم انتزعها من جذورها، غير آبه بصراخه متألمًا. ثم طرحه من السماء إلى الأرض، وقال "هارّوش" لجنده: "الخلاص الآن هو المصير. الملك والقوة والحكم للمبجل. والشاكي قد انطرح على إخوتنا، الذي كان يشتكيهم نهارًا وليلًا". وأضاف: "ويلٌ لكم ساكني البرّ والبحر، فلقد نزل إليكم "المعاند الساقط" وبه غضبٌ عظيم، عالِمًا أنّ ما بقي له من الزمان قليل".

لم يغفر "آتوميس" المعظّم لكروبيمه الخطَّائين، الذين لم يحافظوا على صلواتهم، وتركوا مساكنهم. لقد أجَّلهم إلى ميزان اليوم العظيم، حيث السلاسل وحصار الظلام الأبدي.. ألا بعدًا لكم أيها الملعونون، في جحيم مخلَّد أُعِدَّ للكروب الساقط ومن اتَّبعه.

ورغم الهزيمة، صمم طريد السماء أن يخوض حربه، بلا هوادة ولا مهادنة. إنه ماكر، يحيك المكائد فيوقع بني البشر فيها بسهولة. منذ سقوطه، يدمرهم معه، ويبعث البؤس في حياتهم على المدى القريب والبعيد. الأنا حركت ذلك الكاره لأهل السماء والأرض، ليسطر قصته المأساوية في تاريخ البشرية، وصار في محاربته للسماء يُسخّر البشر. هجمات الكروب الساقط التي بدأَت منذ فجر التاريخ ستستمر إلى نهايته، وسيظل أتباعه قوّة مرعبة، قادرة على إفساد وتدمير وخراب كل شيء.

أولئك الكروبيم المتهاوون هم الأخطر والأشرس والأشد فتكًا بين المخلوقات، فهم يريدون أن يغووا البشر، جاعلين إياهم عجينة طيعة بين أيديهم ولأجل كبيرهم، وفي سبيل ذلك يجتهدون بكل طاقاتهم، ويبذلون أغلى ما يمكن بذله لتحقيقه.

في حالات عديدة يبدو أنّه سينتصر في الحرب؛ إذ يفوز في بعض المعارك المهمّة. ذلك السنُّور الساقط جسور دؤوب في محاولته هز عرش الجليل في قلوب البشر، مختالًا عليهم بقوّته ومجده، طامحًا أن يصير معبودهم. لقد أتلف غروره وغطرسته روحه، فاشتهى ما ليس له، وجمح

برغبته في تسيُّد الكون، مواصلًا تمرّده، ومعاندته للسماء العُلى، والتَوقَ للحلول محل المُبجّل الأوحد.

لكن هيهات هيهات، فنهايته محتومة، وسيأتي اليوم الذي يفقد قوّته وسلطته. يوم تدحره قوّات "آتوميس" العظيم وجندَه دحرًا تامًّا لا قيام له بعده..

ويُسدل الستار.

17

اليوم الثاني والأربعون

الواحدة بعد منتصف الليل

تلك الليلة لم تأتِ "إليزابيث"! اعتراني القلق عاصفًا، وأوشك رأسي على الانفجار. لم تفارقني همسات "هيوسفوروس"، وعندما أتمّ الليل منتصفه، ذهبتُ إلى المخرج الخلفي، بعدما تأكدتُ أن لا أحد يراني. توجهت من فوري إلى الشقة التي أخذتني إليها، وطرقتُ الباب كثيرًا، وما من مجيب! رجعتُ يائسًا دون هدىً، لا أدري إلى أين تأخذني قدماي. شعرتُ بنيران تلفح كعبي.. حرارة في هذا الصقيع..! نظرتُ تحتي، فلم أجد إلا الأسفلت وآثار الأمطار، فالتفتُّ خلفي لأجد كلبًا حالِك السواد، ينظر نحوي مباشرة بعينين حمراوين ملتهبتين، جامدًا في مكانه تمامًا، كأنه يكمل لوحة صامتة مع عمود الإنارة الفيكتوري الطراز الثابت فوق الرصيف إلى جواره.

للمرة الأولى في حياتي يقشعر بدني لرؤية كلب! طوال عمري لا أخشى الكلاب، ولا يزعجني نباحها، مهما كان نوع الكلب أو حجمه. استدرت عنه في هدوء وتابعتُ المسير، لا أدري إلى أين، وما زال اللهيب يلفح قدمي، ولا زلتُ أشعر بخطواته قريبة خلفي.. أقف يقف.. أمشي يمشي.. وتأكدت أنه يتبعني!

اهتديتُ أخيرًا إلى إحدى حانات لندن على طريق عودتي. التفتُّ مرة أخرى للتأكد من شعوري أن ذلك الرفيق المريب لم يزل ورائي. رغم أنه لم يهاجمني، ولا بدت منه نحوي أي نية عدائية، إلّا أن تلك اللفحات النارية الغريبة، في ذلك الصقيع القاسي، بالتأكيد أثارت في عقلي دوامات من القلق. نعيق قويّ اخترق الصمت البغيض، وعلى أثره عوى الحالك ثلاث مرات، وتردّد

صدى عوائه ثلاثًا! "غارم"..! كلب الصيد المتوحش الذي عوى على حدود "أسغارد"! على العمود هبط الغراب.. هذه علامة إذًا!

لماذا شعرتُ بكل هذا الهدوء لقدومه؟، لا يهم لماذا، المهم هو شعوري بذلك.

قررتُ دخول الحانة. ألقيتُ نظرة أخيرة إلى الرفيق الحالِك، لكني لم أجد له أثرًا، وكأنّ قدوم المعلّم الأقدم أجبره على الرحيل! من الأفضل أنّه رحل. بسط المعلّم جناحيه، وحلّق راحلًا هو الآخر، ربما ليزور مُتعبًا غيري، وربما ليعود من حيث أتى؛ لا أحد يعرف.

الإضاءة الحمراء تغمر الحانة، والموسيقى صاخبة تصدح في كل الأرجاء.. على يساري عند البار، لمحتُ بطرف عيني ابتسامة النادل تتسع من الأُذن إلى الأذُن. توجهتُ صوبه مباشرة، وجلستُ على المقعد المرتفع، وقبل أن أطلب كأسي وجدتُه يضعه أمامي بكل ثقة، ولا زال يبتسم. وضع إلى جوار الكأس صحن المزّة المفضلة لي. أهو لمّاح إلى هذه الدرجة؟ أدهشتني حقًا فطنته! تناولتُ كأسي، ولم أخفِ نظرة إعجابي بفراسته. تجولت بعيني في المكان، فجذبتني تلك الراقصة دون غيرها من راقصات عرض "الإستريتيز"، في الدائرة المحاطة بأربعة أعمدة في منتصف الحانة موزعة حسب الجهات الأربع، كل راقصة تقبض على عمودها المخصص لتلك الرقصات بقوة، أما هي فكانت تتلوّى بقوة كأنها حيّة تقاوم الموت، نَهَدَت عامدة، وبانسيابية أخذَت تركع وتنهض، تقفز وتدور حوله برشاقة، تباعد بين ساقيها البضّتين بإيقاعية، وتهزّ مؤخرتها الغضّة ببطء قاتل يثير الشبق، وتقوم بحركات أخرى مثيرة، محترفة في إبراز مفاتن جسدها العاري تمامًا؛ إلّا من بعض الوشوم الغريبة التي تغطي مناطق حساسة جدًّا. شعرت بلهيب يلفح وجهي، فتلوّن وتعرّقت جبهتي. من تلك المسافة وصلتني الحرارة المنبعثة من جسدها لتصيبني بالحمى. أجلس على جمرات متقدة، غير متزن..

- تعجبكَ فتاتنا، صار لكَ أكثر من خمس دقائق وأنتَ تحدّق في نهديها. أعرف أنكَ تفتقد هذا النوع المثير؛ بقدر ما تسحركَ الأعين ذات الأحجار الرمادية. لا تقلق، ستقضي معكَ الليلة، على حسابنا.

همس النادل بتلك الكلمات في أذني كالفحيح. يمكنني أن أعلل معرفته نوع الخمر المفضل لأي أحد من تعبيرات وجهه واستنتاجه لحالته المزاجية، بما يحمل من خبرة؛ لكن كيف له متابعة

نظري في هذا الزحام والضوضاء وضباب الدخان والضوء الأحمر الخافت، ومعرفة أي جسد اشتهيت من تلك الأجساد الثائرة في العرض؟ وكيف له بمعرفة ما أفضله من الأعيُن؟!

- لستَ إذًا مجرد نادل فطن، بل أنت أيضًا قوّادٌ قوي الملاحظة.

سمعتُه يقهقه، رغم أني أرى فمه مغلقًا! وبابتسامته التي استقبلني بها، وبنفس الهسيس قال:

- اعتبرني ما شئتَ سيدي. نحن هنا نعمل جاهدين على راحة الزبائن، ولأنّ هذه هي المرة الأولى التي نتشرف فيها بلقائكَ، اطلب ما شئتَ يُجاب. نحن لدينا أسرع خدمة توصيل في العالم، فليس عليكَ أن تتضرع وتتذلل حتى تنال.. كما لدى الآخرين الذين تتأخّر إجابتهم جدًا.

لا زلتُ لا أستطيع إخفاء إعجابي بذلك الوغد. قلتُ:

- هل لي بسؤال؟

وقبل أن أنطقه، أجاب:

- بالطبع لا أسخر من السماء البعيدة وساكنيها، كما لا أعقد مقارنات واهية. هذه هي الحقيقة مجرّدة من أي زيف أو ادعاء يا عزيزي.

نظرتُ إليه في ريبة، وقلتُ في حزم، وقد استفزتني كلمة "عزيزي":

- لستُ بعزيزكَ. هذه المرة الأولى التي أراكَ فيها أيها الأخرق.

رد مبتسمًا:

- أنتَ عزيزي بالفعل.. يا عزيزي. إنني أعرف عنكَ أكثر مما تعرفه عن نفسكَ.

استوقفتني كلماته، سألتُه:

- وما الذي تعرفه عني أيها الـ ....

وقبل أن أكمل السبّة التي انتويت قولها، قاطعني مجيبًا:

- ذهبتَ إلى تلك الشقة، فلم يجبكَ أحد. ولو أطلتَ الانتظار، ما أجابكَ أحد. فرجعتَ، لا تعرف إلى أين أنتَ ذاهب، فقادكَ الرفيق الحالك إلى بابنا. كان هذا طبيعي، حنينكَ إلى الكأس كاد يفتك بكَ، فلم ترَ مكانًا آخر أنسب من حانتنا، فأهلًا ومرحبًا بكَ. استمتع بكأسكَ، وهذا كأس آخر على حسابنا، ولا يزال عرض الفتاة ذات النهدين البارزين قائمًا حتى تقرّر.

للمرة الأولى في حياتي أعجز عن الرد على أحد. كيف له بكل تلك المعرفة؟ حاولتُ وضع يدي على كتفه لأستبقيه، ولكن يدي لم تستطع الوصول إليه. التفتَ ناظرًا إليّ بنفس الابتسامة، لكن هذه المرة اقشعر لها بدني. حاولتُ النطق بصعوبة، وما خرجَت من فمي إلا كلمة "أنت.." فقاطعني بـ "شششش"، ولم أجد رضابًا في حلقي لأبتلعه، فقال:

- لا تنطق باسمي هنا، نعم أنا... وأنتَ عزيزي، مصيرنا واحد كما طريقنا. طُردنا من النعيم معًا، لُعنا إلى الأبد.. لا توبة لنا يا رفيقي، سُلبت منا الحياة التي خلقنا لأجلها، فلنصنع حياتنا الخاصة. لم تكن مخلصًا لها يوما، لم تستحق أن تكون أبًا أبدًا. لقد فعلتَ كل الموبقات التي نُهيتَ عنها.. اقترفتَ كل الآثام. لا تقل أنك تنتظر الخلاص؛ أي أحمق أنت! سندخل إلى الجحيم من باب واحد، ولسوف نتلقّى نفس مقدار العذاب. طريقكَ إلى الجحيم بدأ منذ طُردنا.

لم يتجمّد لساني فقط، عجزتُ كليًا عن الحركة، ولا يزال يستطرد منفعلًا:

- أنا البريء الذي اتُهِم. كل ما قيل عني محض افتراء، أليس من حق كل مَن يبحث عن المعرفة أن يحصل عليها؟ لماذا تقتصر الحكمة على كائنات دون غيرها؟ ما الجرم الذي ارتكبتُه؟ أحببتُ السماء البعيدة وأهلها بكل جوارحي، حاربتُ لأجل انتصارها، لم أتردد أو أتقاعس أو أتخاذل في أي أمر طُلب مني؛ أتكون هذه مكافأتي؟! أُلعَن وأُطرَد، وأسقط شر سقوط؟!

لفحتني تنهيدته، وبدت عينيه كأنهما تبكيان. قال:

- أتعلم يا.. عزيزي.. على قدر حبي للسماء البعيدة وكل ساكنيها، صار حقدي الخالد للسماء والأرضين نيرانًا لحرب لن أخمدها إلى الأبد. أعلم ما يدور بخلدكَ.. بداخلك يتصارع الكروب الساقط والسيراف الناسك.. أنتَ أكثر البرايا تعقيدًا.. ومعاناة!

فرقع الوُسطى بالإبهام، فشعرتُ بأنني أعود إلى حالتي الطبيعية مرة أخرى. عاد الرضاب إلى حلقي، ابتلعتُه بصعوبة، وضعتُ قدمي على الأرض.. لا يزال يتبسم في وجهي، وفور قوله: "أتمنّى لكَ ليلة سعيدة ونومًا هانئًا وأحلامًا لطيفة يا عزيزي"، هرولتُ مسرعًا إلى الخارج، ولم أنظر إلى الخلف، ولن أنظر. كل ما تمنّيتُه فراشي، أتدثر فيه بالغطاء. لم أشعر في حياتي بمثل هذا الصقيع، كدتُ أتجمد من الذعر.

18

اليوم الثالث والأربعون

وإنّي أركض وراء ظلي تارة، وتارة ظلي يركض خلفي.. وكلانا لا يصل لشيء.

لماذا أنظر نحو الأرض، والأفق يمتد من أمامي؟

ارتجاجات سريعة متتالية عصفَت بجدار الروح المتصدع، فما فاضت ولا سكنَت، ظلّت بين بين.. سقوط الكوب تلاه انفجار، على أثر الرعشة التي اجتاحت يدي، وعلى الفور عرفتُ معنى الاشتياق.

أشتاق إلى خشونة يديه حين أقبلها، ولم أكره في حياتي أكثر من هبَّات الهواء الباردة التي بقسوة لفحتها.

لن أنسى أبدًا ملامسة أناملي تلك التشقّقات الغائرة بقسوة في قدميه، وأبغض كل الطرق التي تسببت فيها حين سلكها.

عظيم بكل تفاصيله.. تجاعيده، رائحته الفوّاحة بالعرق، سمرة بشرته التي صبغَتها الشمس الحارقة.

لم يكن يزعجني شخيره عندما يغط في سباته، وأداوم برفق على تعديل وضع رأسه حريصة ألّا أُفزعه، ولكم أزعجني إجهاده لكسب القوت حتى لا ننم جوعى!

وأذوب في جلدي حين يسألني: "أتفطر معي؟"

الأب.. هو ذلك الجدار الفولاذي المنيع، الذي تستند إليه إن شئت، وتحتمي خلفه متى خفت.

من كان أبوه على قيد الحياة لن يستوعب قولي، لكنني أخبره عن يقين أنه لو يحفظ كنية بلاد الضباب بأنها "الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس"؛ فالأب بالنسبة للابن هو الشمس ذاتها، وما الأبناء إلّا كواكب تسبح في فلكه وتستدفئ بحبه، وإذا تحيد عن مساره، هلَكَت. سيفهمني تمامًا من يفقد ذلك.

يقتلني الشوق تقتيلًا لعناقكَ مرة أخرى.. مرة واحدة كفيلة بإزاحة الهمّ عن روحي. سامحني.. آسف على كل لحظة مرّت وأنا أتنمّر على مهنتكَ، التي طالما أطعمتنا. أندم على كل لحظة مضَت دون أن أنتهز فرصة عناقكَ. عُد، وسأقبّل يديك وقدميك كلّما رأيتُك، سأنزل معكَ إلى الدكان وأعمل بكد في صناعة القفافيز، وإصلاح الأحذية لعمال المصانع المجاورة. أتعلَمُ يا أبتِ، سأصنع لكَ الفطور بنفسي، وكوب الشاي الذي كنتَ تفضل. لن أدع لكَ ملابسي ملقاة بأوساخها، حتى تيأس مني وتأخذها لتغسلها أنت لي. سأغسلها بنفسي مع ملابسكَ. أعدكَ بفعل كل ذلك، لكن ارجع. عُد، أرجوك، أنا في أمس الحاجة إليكَ.

صدقتَ عندما قلتَ لي مقولتكَ المستمرّة: "بعدما أموت ستقول ولا يوم من أيام ذلك الرجل ذي الوجه الأسود". أين أيامكَ؟ حقًا ولا يوم من أيامكَ.. ولا يوم من أيامكَ أبتاه.

يوم فارقتَ الحياة يا أبي لطمتُ خدي، وشققتُ ملبسي، وأهلتُ التراب على رأسي كالنساء. يومذاك عرفتُ معنى التعري.. أن أصير في لحظة بلا سند، بلا مدد، وحيدًا.. اكتشفت متأخرًا أنك كنتَ كل شيء بالنسبة لي.. أبي وأمي وأخي وكل أحبتي، وحين تركتَني، تركتَني فردًا. لقد استوعبتُ الدرس يا حبيبي، وا أبتاه!

سقطتُ منهك الروح على الأرض التي بلّلتها أدمعي، ولم أشعر بشيء حولي، إلّا عند الطرقات المزعجة التي انهالت على بابي. مرة أخرى يعاود الدميم الطرق لإزعاجي؛ ما العائد من وراء ذلك؟ ماذا يريد مني؟!

نهضتُ والغضب يعتريني، فتحتُ الباب بعنف، وكما توقعتُ لم يكن أمام الباب. هناك، يقف أسفل البقعة المضيئة في نهاية الرواق. بسرعة ذهبتُ إليه، وكعادته قبل وصولي بقليل، تبخّر كالسراب.

عدتُ إلى غرفتي، لكن هذه المرة ليس إلى السرير. أغلقتُ الباب، وانتظرتُ خلفه متأهبًا لفتحه عند أول طرقة. مرّت الدقائق كالساعات، ولم يطرق بابي.. فتحتُه، ونظرتُ إلى الضوء في نهاية الرواق، ولم أجده. لماذا لم يعاود الطرق، ألأنني متأهب لذلك؟

انتظرتُ عدة دقائق، ولم يحدث شيء، فمللتُ وصعدتُ إلى فراشي. سحبتُ الغطاء حتى رأسي، وأغمضتُ عيني، لكن النوم أقسم بحقّ السماء ألّا يأتي.

ثلاث خبطات مزعجة انهالت بعنف على الباب، كادت تكسره. فتحتُ الباب، لأجده هناك. اقتربتُ منه لدرجة كافية، حتى تبيّنَت ملامحه. له عينان حمراوان، تحدقان فيّ لا ترمشان، وتدمعان بالدم. لم يخف من اقترابي بهذا القدر، بل أنا من توترت من عدم اختفائه ككل مرة. اقتربت أكثر وهو لا يحرك ساكنًا، حتى صرت على خطوة واحدة منه، فجثوتُ على ركبتي، فمد يده ليتحسس وجهي.. تحسس لحيتي برفق، ودون أن يفتح فمه خرجَت منه تلك الكلمات بصوت مزدوج رهيب: "قريبًا.. وحيدًا.. غريبًا.. تلحق بي!"، ثم صفعني صفعة لم تؤلمني، وتبخّر فورًا.

حِرتُ حتى الألم من قسوة التساؤل: ما الذي فعلتُ ليصفعني؟ هو مَن يزعجني بطرقه، ولستُ أنا من سعيت إليه. أأعرفه من الأساس، لألحق به؟ وضعتُ كفي على خدي المصفوع، عدتُ أدراجي إلى مرقدي، سحبتُ غطائي وأغمضتُ عيني، أحاول النوم وإبعاد السؤال الأشد قسوة: لماذا جثوت؟! ولم يأتِ النوم في ليلة الصفعة.

19

اليوم الرابع والأربعون

منتصف الليل

وما تلك الأضواء المتناثرة في ليل السماء إلّا المصابيح التي أشعلها أسلافنا في ڤالهالا، القابعة في عمق ساحات السماء البعيدة.

حدثتُ مصابيح السماء المبعثرة على صفحة الليل الأسود، أسألها أن تريني علامة، فلم تجبني. غلب السكون الحزين ليلتي، وقبعت أتأمل السماء المظلمة وأرسل عيني في عمقها. فجأة، ارتطم شيء بزجاج النافذة، فتصدّع! اجتاحت نوّة هادرة كياني، وكادت رجفتي توقف نبضي. ثم أتاني النعيق المدوي، يصمُّ أذني!

يا ترى، ما هي العلامة التي أتاني بها المعلم القديم هذه الليلة؟

***

لندن - قبل سبعٍ وعشرين سنة

هَذاك العام؛ في ليلة قارسة البرودة، حضرتُ معرضًا فنيًا في لندن. اللوحات البديعة زيّنَت الحوائط، ألوانها الخلّابة تشع بالسحر، فيستسلم الرائي للجمال دون أدنى مقاومة. استسلمتُ كمعظم الحضور، حتى جذبَتني إحدى اللوحات فلم أعد أرى غيرها. سرتُ إليها مأخوذًا بتفاصيلها.. رأس كركدن حزين تبرز من يمينها، يقف فوقها غراب حالِك السواد بزاوية جانبية، يغرس مخالبه في

جبهة الكركدن، والدماء تسيل حتى فمه! أمعنتُ النظر في خلفية اللوحة.. إنها خيوط عنكبوتية متشابكة، ومن بعيد تبيّن كأنها حائط متصدع! كم هي معبّرة لدرجة الشجن!

أسفل اللوحة، كُتب اسمها بالإنجليزية (Head of Rhinoceros). قهقهتي أجبرَت الحضور على الانتباه إليّ. انتابتني وصلة غير منقطعة من الضحك، ابتسم الحاضرون تعجبًا منها، إلّا فتاة كانت تحدق فيّ مقطبة. اقتربَت مني واضعة يدها أمام صدرها، وابتسمَت ابتسامة جانبية قبل قولها:

- معذرة.. هل لي بمعرفة المضحك في اللوحة؟ كنت أعتقد أنها كئيبة إلى حد كبير!

لم أستطع قطع الضحك فورًا. تنحنحتُ محاولًا استجماع بعض الرزانة التي بعثرتها ضحاكتي، متأكدًا من أن الجميع اعتقدني مخبولًا أو مخمورًا. ابتسمتُ لها محييًا، ثم مجيبًا:

- إنه اسم اللوحة. هل لي بلقاء الفنان الذي رسمها؟

ضيّقَت حدقتيها وهي تزم شفتيها قبل جوابها:

- أنتَ تقف بالفعل مع الفنان الذي رسمها.

- أووه!

تجمدتُ مكاني محدقًا في عينيها الرماديتين، مأخوذًا إلى دوامة لا نهائية السحر. أخذ فمي وضعية الـ (O)! كيف لهذي الصبية، التي لم تعرف الدنيا بعد، أن ترسم هذا العمل البديع؟!

لم أتردد في الطلب:

- هل لنا باحتساء قدحين من القهوة على حسابي؟

- أهكذا تعتذر عن إهانة لوحتي؟

رفعت يدي محتجًا:

- قطعًا ليست إهانة! هناك سوء فهم، سيزول تمامًا عندما أخبركِ عن السبب. اسمحي لي.

صامتة أومأَت برأسها، ثم ذهبنا معًا.

***

جلسنا وجهًا لوجه، وأخذت أتأمل كم هي رقيقة وهي ترشف من القدح.. هي تقبّله برقة لا تحسي منه! حاولتُ جاهدًا ألّا أصدر صوتًا وأنا أرشف، لكنني فوجئت بها تقول وهي لا تنظر إليّ:

- هل بك حاجة للادعاء؟!، كن على طبيعتك، فلن يزعجني الصوت بالقدْر الذي تعتقد.

ابتسمتُ.. رشفتُ كما أحب، دون تأنق مرهق بلا جدوى حقيقية. شعرت بأريحية جعلتني أتلو عليها حكاياتي..

- كنت آنذاك صبيًا صغيرًا بالصف السادس.. أتذكر جيدًا كيف لم أستطع تقبُّل سخرية زملائي من حجم رأسي الكبير نسبيًا بالنسبة لحجم جسدي النحيل. كنت أعرف -من درس الرسم- أن معظم الأطفال العاديين يكون حجم رأسهم كبيرًا بالنسبة إلى أجسامهم في سننا الصغيرة، لكنهم كانوا يتنمرون وينادونني: "وحيد"، فأجيبهم "نعم"، فيكملون "القرن".. "وحيد القرن"، ثم ينفجرون ضحكًا! لكم أعادوا ذلك مرات كثيرة كل يوم، حتى جاء أحدهم ذات يوم -والذي أسميتُه بيني وبين نفسي "مؤخرة الماموث"- وقال لي: "كيف حالكَ يا رأس الكَرْكَدَنّ؟".

اتسعَت ابتسامتها، فأكملتُ...

- لم أكن أعرف للكلمة معنى. فسألتُ أبي، لم يجبني، فكيف لصانع القفافيز الأميّ أن يعرف مرادفها. وفي إحدى المرات، ناداني "مؤخرة الماموث" بنفس اللقب، فتجرأت وطلبتُ منه تفسير معنى الكلمة، فقال لي إنه حكى لأبيه عن حجم رأسي وسخريتهم مني؛ فعنّفه وأخذ عليه عهدًا ألّا يناديني به مرة أخرى. أكمل متبجحًا أنه فكر كيف يفي بعهد أبيه، وفي نفس الوقت لا يكفّ عن مضايقتي، فهو يستمتع بها. قال: بحثتُ وعرفتُ أنّ مرادفها "كركدنّ". ابتسمتُ، وتركتُه يقذف ظهري بنفس النعت، وحذا حذوه باقي الزملاء. نظرتُ إلى ظلي المستلقي أسفل مني، بسبب تعامد شمس الظهيرة، فوجدتُ رأسي بالفعل تشبهه، بسبب شعري الذي أفضّل تصفيفه لأعلى، ولأنه كثيف كان يعطي ذلك الشكل المميّز. الآن لم يعد كذلك، لكنني لا زلتُ أملك من الشعر ما يمكنني تصفيفه.

ضحكت على استحياء، فضحكت معها، فتشجعت وتركت ضحكتها تعلو، فعلت معها ضحكتي. ضربَت كفًا بكف، وأخذَت تضرب الأرض بقدميها، ولفتنا إلينا أنظار روّاد الكافيه، فلم تكترث بهم، وراحت تضرب المنضدة بقبضتها. وأنا أضحك معها، سألتُها: "أأنتِ متزوجة؟"، هزّت رأسها نافية وأجابت وهي على حالها: "لا، لا، لا". لم تكف عن كل هذا إلّا بسؤالي:

- أتقبيلن الزواج بي؟

فجأة، سكن ضجيجها وهي تحدّق فيّ!

***

تك.. تك.. تك.. ثلاث طرقات على بابي كفيلة بإقلاق راحتي. ما عاد شيء يزعجني في حياتي أكثر من طرقات الباب في ذلك الوقت المتأخر من الليل. تبًا للطرقات، وسحقًا للطارقين.

فتحتُ الباب، نظرتُ إلى البقعة المضيئة في نهاية الرواق، لم تكن مضيئة، ولم أرَ الفتى الأقرع الدميم ذا الجسد الشبحي المريب! كدت أعود إلى غرفتي، لكنني رأيتُ شخصًا آخر، يحمل في يده مصباحًا مضيئًا، منعني من تمييز ملامحه. اقتربتُ منه.. منها.. إنها "إليزابيث"!

تبينتها أكثر.. كانت تغطّي وجهها الكدمات، والدماء تسيل من فمها، ممزقة الملبس، بالكاد تستر عورتها! ماذا حدث لها؟، تقدمتني في الرواق، وأومأَت برأسها، فتبعتُها حافي القدمين كما أنا، وصدح نعيقٌ مزعج في الرواق، تردد صداه عدة مرات، كادت معها تفيض روحي. نظرتُ في كل الأرجاء أتفقّد الناعق، دون جدوى.

تبعتها في الممر السري، وحين وصلنا خارج المستشفى، بدأت تسبقني بمسافة كبيرة. عطستُ عطسة كادت عيناي تسقط أرضًا لقوتها. الحرارة منخفضة للغاية، وأنا غير متدثر بالمعطف كما المرة السابقة. لهثتُ خلفها، أعياني الركض، فوق رأسي حلّق المعلّم، سبقني كي أتبعه، لماذا أعلن عن نفسه بالنعيق داخل الممر؟ لم أعد أشعر بقدمي، وأنهكت تمامًا. منذ زمن لم أركض بهذه القوة، بل لم أمارس أية رياضة ولا حتى تمارين الصباح الخفيفة. ما الذي حلّ بسيرافي الحارس؟ أين اختفَت؟ توقف المعلّم.. فتوقفت.. وتوقعت أن أجد إجابة أسئلتي عنده.

على عمود الإنارة المقابل لشقتها، وقفَ المعلّم. انقبض قلبي.. ركضتُ إلى بابها، أخذتُ أطرقه بكل ما أوتيتُ من قوة. ناديت بأعلى صوت "إليزابيث". من الداخل جاءتني صرخاتها، فجُنّ جنوني، وضربتُ الباب بقدمي، فاهتز ولكن لم يُفتح. رجعتُ إلى الوراء مسافةً، وبعنف دفعتُ الباب بكتفي، ففُتح أخيرًا، لأجد رجلًا ضخم الجثة ينهال عليها ضربًا!

إنه زوجها البغيض بالتأكيد. كان يحيط عنقها بحبل ويجذبه ببطء وهو يبتسم، وهي تصرخ في فزع، ويستمر فيما يفعل دون أن يشعر بكل الضوضاء التي صاحبت اقتحامي للباب! ألهذه الدرجة هو منتشٍ بإيذائها، سكران بقتلها؟!

قفزتُ على ظهره، وخنقتُ عنقه بذراعي، لكنني وجدت نفسي أرتطم بالحائط، ثم أسقط على جانبي أرضًا. تقدّم نحوي والشرر يتطاير من عينيه، ويقبض بيديه على الحبل. نهضتُ والغضب يعتريني أنا الآخر. تفاديتُ لكمتَه القوية بصعوبة، ولكمتُه في جنبه. الأيرلندي الداعر قوي الجثمان، عفي البنيان، صلدًا كالصخر بحكم عمله كمزارع. لم يجابهه وهن مرضي، فأبرحني ضربًا ابن الباغية، وكاد يقتلني بذات الحبل الذي كان يخنق به "إليزابيث" قبل لحظات. كلما لكمتُه، ترتد قبضتي صاغرة، وهو يحكم الحبل على عنقي، فأرتخي وأستسلم.

توقف الزمن، واحتبس صدري أنفاسي، وأخذت عيناي تجحظان، والأرض لا تكف عن الدوران من حولي، وكل ما حولي يدور حولي.. خارت قواي، وما عادت قدماي تحملاني، فركعتُ يائسًا على ركبتيّ الواهنتين، ولم أعد أرى أي شيء، ولا أسمع إلّا الطنين، ولا هواء يمر بحنجرتي ليصدر صوتي، وأوشكت روحي على مغادرة جسدي العليل. لا.. لا أريد الموت قبل نظرة أخيرة.. عيناها قادرة على إحيائي، حتى وإن مِتُّ آلاف المرات.

صرخت بكل ما أوتيتُ من قوة باسمها، علّها تسمعني، "إليزابيث"، لكن صوتي لم يتعد قلبي. حتى الأفكار بدأت تغيم والظلام يحل محلها..

ثم فجأة سقط الثور أرضًا، وتفجرت الدماء تغطّي وجهه. لمحتُ كسرات فخارية تتناثر حوله، فعلمتُ أن سيرافي قدّمَت المدد. بين الوعي والخيال أتاني صوتها متقطّعًا مبحوحًا، وأحسست بيدها تتلمس وجهي وهي تقول في لهفة: "حبيبي، أأنتَ بخير؟"

دخلتُ في غيبوبتي مرتاح البال، لا يهمني إن أفقتُ بعدها أو لا.

***

كأميرة الأساطير النائمة وجدتُها، فابتسمت. تحسست رقبتي، وكدت لا أصدق أنني أفقت وما زلت في هذه الحياة. حاولت تذكر ما حدث، فلم أتذكر سوى وجه ذلك الوحش يملأ أفق الرؤية وهو يخنقني وتفوح رائحته الكريهة في أنفي. أصابتني قشعريرة وتقزز، واستفزني السؤال كيف تزوجت مثلها مثله، لكن نظرة ثانية لها جعلتني لم أجرؤ على إزعاجها!

"إليزابيث"، لكم أعشق كل تفاصيلك.. بحق أحبكِ. اقتربت منها، ومددت يدي أربت على جسدها المنهك، فلم تشعر بي. لقد كاد يهلكها ذلك القبيح، لولا مجيئي، وكاد يهلكني لولاها أيضًا، فأي تعشُّق روحين هذا الذي صرنا إليه يا سيرافي الرحيم! تذكرتُ قولها لي: "أنتَ الكائن الوحيد الذي بدأ تشكيلكَ كسيراف، لكن اكتملتَ كبشري ليرى فيك البشر كيف تكون السيرافيم. صدق المثل الصيني القائل "النساء يحملن نصف السماء".

20

اليوم الخامس والأربعون

أيها العربيد، المرتّخ بالدنس، أنتَ عارٌ على بني البشر، عليك لعنة "آتوميس"، تستحق لهيب "هِل"، وسخط "أودِين"، وغضب "ثُور"، فليعتصركَ ثعبان الكون، ليقبض روحكَ مبعوث "آنوب".

لا خوف بعد اليوم.. لا حيرة.. لا تردد. قراري -وأبدًا لن أحيد عنه- لن ألعق كفّ العرّاف.. ما الذي سأخسر بعد؟!

سأستعيد نفسي، ذاكرتي، عافيتي، ماهيتي. سأستعيد كل شيء فقدتُه، إلّا وحيدي. ولدي الذي غيّبتني عنه الملذّات. سامحني قرة عيني، اغفر لي حتى نلتقي، في ڤالهالا، أو عدن، أو النعيم. حتما سنلتقي يومًا، سأعانقكَ حتى تملّ، سأضمكَ ضمّة الدب حتى أسمع طقطقة عظامكَ، سألاعبكَ حتى تتعب، سنتبارز حتى أترككَ تطعنني، سنحتسي الشراب المنهمر من ضرع الماعز العظيمة ونتقارع القرون، ونرش بعضنا بعضًا بما فيها من خمر.

***

انفجارٌ رهيبٌ قضّ مضجعي، واستفيظتُ مذعورًا على طرقات ميولنير تضرب السماء بغضبٍ عارم. تعلقت عيني بالنافذة، أحاول استيعاب سبب تحطم الزجاج! هناك شيء يقف على حافة النافذة من الخارج.. أمعنتُ النظر، فلم أستبين شيئًا! برق النور الأبيض، فكشف عن ريش ظهر المعلّم الأوّل. لماذا جاء غاضبًا هذه المرة، يوليني ظهره؟! التفتَ إليّ، وحدق مباشرة في عيني، فاتحًا عينيه الحمراوتين عن آخرهما، ونعق نعقة رهيبة أصابتني بالهلع، وارتجفت. قمت إليه

مذعورًا، فدهست قدماي الحافيتين شظايا الزجاج المتناثرة على الأرضية، فسقطتُ أرضًا على كوعي الأيسر وسمعت طقَّته، ثم بدأ الألم. صرخت، وحاولتُ النهوض، لكنني انزلقت في دمي السائل من أثر الشظايا الزجاجية. طار المعلم وصدى نعيقه يتردد.

بالكاد تنهدت، وإذ بطرقات سريعة متتالية قد انهالت على الباب! ثلاثية، متتابعة، غاضبة، تكاد تفتك فتكًا بالباب! هرب الرضاب من حلقي.. دقّاتُ قلبي تضرب حنجرتي.. أنفاسي تزفر مذبوحة، وخدلٌ قميء بطيء يوشك على تجميدي. قاومت.. زحفتُ حتى وصلتُ الباب.. تعلّقتُ بيميني في مقبضه، ونهضتُ وآلام كوعي وقدمي لا تحتمل، فتحتُ الباب، أعماني الضوء!

لم أستطع رؤية أي شيء على الإطلاق، لا شيء أمامي! عيناي مفتوحتان دون رؤية! أصابني العمى، بكل ما تحمل الكلمة من معنى. كدت أبكي، لكن رويدًا رويدًا بدأَت الرؤية تتهادى إلى عيني، وألوان متعددة تتداخل، وأطياف متشابكة تتراقص، ثم تتحول إلى أشكال وأجسام ضبابية تفصح عن وجودها ذات اليمين وذات الشمال!

فوجئت بالسماء من فوقي صافية رائقة ساحرة، تتزيّن باللؤلؤ الوضّاء، ونسيم عليل يجتاح أنفاسي عابرًا إلى عمق روحي، بينما انبسطت البساتين الخضراء أمامي بانتظام بديع في كل الأنحاء، وملأت أذني زقزقات طيور منغّمة لم أسمع بزقزقتها من قبل، تصدح مترنّمة في شتى الأرجاء، وخرير ماء من بعيد يتهادى مترقرقا، وضحكاتٌ عذبة مريحة تنبعث من حولي بين أناس من كل الأشكال والألوان والأعمار تجلى الصفاء على محيَّاهم، ووشت وجوههم بارتياح ليس بعده ألم.

على مد البصر، رأيت قصرًا مهيبًا ذهبيًّا لامع القباب! سرتُ صوبه أعرج، حاملًا كوعي بيميني، وكلما اقتربتُ منه اتضحَت تفاصيله: زخارف يستحيل استيعابها، أبواب واسعة شاهقة لا يمكن عدّها! اخترتُ بابًا لنفسي، دلفتُ منه. استقبلتني الضحكات الصاخبة، وصوت تقارع قرون الخمر يبعث على الصمم، وصليل السيوف سريع ومزعج ثبّتني في مكاني، والناس تطعن بعضها البعض وهم يتضاحكون، ثم يساعدون بعضهم على النهوض بعد كل طعنة!

ذهبوا بعد ذلك لمائدة عظيمة، ينتفون منها اللحم ويأكلون، ثم يتجهون لماعز ضخمة جدًا يكاد قرناها يصلان للسقف، يملؤون قرون شرابهم من ضرعها ثم يشربون ويتقارعون بمرح!

توقفَت عيناي الباحثة فجأة عند منتصف بهو القصر الواسع الأرجاء، حيث عرش، على جانبي متكئه يقف غرابان عظيمان حالكان، ويجلس إلى العرش جبار مهيب يزيد بسطة في الجسم عن كل الحاضرين، فوق رأسه تاجًا رباعيًا من قرون الظباء الشمالية، يشع النور من وجهه، لحيته ناصعة ثلجية مجدولة ثلاثية محلّقة من أطرافها، تنسدل حتى صدره.. يشرب ويضحك، يجول بناظريه بين الحضور.. حتى توقف عندي. دبّت القشعريرة في كل أوصالي، وأنا أتبين في محجر إحدى عينيه لؤلؤة لامعة لا حدقة! ابتسم وحيّاني بقرنِ شرابه، فابتلعتُ رضابي وتجمدت لا أرد تحيته من فرط الهيبة. تداركت نفسي، وأطرقتُ رأسي متأدبًا، محاولًا التماسك حتى أستفيق، فرأيت عند نعليه يرقد ذئب ناصع باسط ذراعيه، وآخرٌ يتمسّح في ساقه.. أهو المُبجّل بنفسه!

فجأة، صاح النفير ثلاث صيحات، تردد صداها ثلاث مرات، لكل مرة ثلاثة أصداء. ضربت السيوف على الدروع بسرعة وهمجية، وتراصت الجموع بسرعة في صفين. وعند نهاية الصف قبالتي، رأيتُ نفس الفتى الشبحي الحليق، ذي العينين الداميتين، يحمل سيفًا ودرعًا، ويحدّق فيّ بعارم الغضب!

تقدم نحوي بسرعة.. وجّه إليّ ضربة قوية بسيفه، بصعوبة تفاديتُها. ضربني أخرى سريعة، لم تطح برأسي الذي خفضتُه، لكنني سقطت أرضًا. حاولتُ النهوض للفرار من الضربات المنهالة عليّ، لكنه انتظرني لأقف، وفورًا طعنني بسيفه في صدري طعنة نافذة اخترقَت قلبي، وصرخ في صدري ألم يستحيل وصفه! رأيت الجميع يصيحون ناعقين، مهللين، ضاربين دروعهم بسيوفهم، فانتظر هو لحظة يعلقني في الهواء بسيفه وهو ينظر لي بوجه جامد لم أفهم ما وراءه.. ثم سحب سيفه فجأة، وتركني أسقط.

لم أمت! اقترب مني، ومد يده إليّ. لم أمد يدي، فهزّ كفه أمام وجهي، فأمسكتُ به، وجذبني لأنهض. وقفت أمامه أراه بوضوح للمرة الأولى.. رأسه اكتسى بشعر ناعم حالك منسدل، وقد زالت حمرة عينيه وراقت، فانجلت حدقتاه بلون البندق. ازداد طوله ليضاهيني، تبدّلَت ملامحه من الدمامة إلى الجمال! صار جميلًا إلى حد أذهلني! اقترب مني أكثر، إلى حد ضغط بقدمه على قدمي.. واتسعَت ابتسامته تملأ ثغره. صفعني تلك الصفعة التي لا تؤلم وإنما تُفيق، وعانقني عناقًا حارًا قائلًا:

"مرحبًا بكَ أبي العربيد".

21

اليوم السادس والأربعون

نغلٌ ووغدٌ ونذلٌ وخمسُ بغايا وقَوّاد، رفقاء الليلة البغيضة، صحبة الليلة السوداء. في الماخور، استقبلتني ضحكات العاهرات الرقيعة تملأ المكان، ورأيتُ اثنتين تجلسان على قدمَي أحدِ الأنذال السكارى، وأخرى تجلس بين وغديْن ذهبَت الخمر بعقليهما، أحدهما يلعق عنقها بلسانه، والآخَر يُقبّل نهديها. أربعة أخريات يتبادلن القبلات المقززة بين ثلاث سكارى حتى الثمالة، وعن طريق الخطأ قبّل أحدهما الآخر، وقهقها بصوت خشن يبعث على الغثيان. جذبني صوت ارتطام قارورة برأس أحد الأوغاد، كان يتشاجر مع أحد الأنذال. انتهى به الأمر إلى سيلان دمه على أرضية الماخور، وانفجر المكان بضحكات تنوّعَت بين خشنة مزعجة ورقيعة ملفتة. من كل قلبي تمنّيت أن يأخذ الموت الأسود كل هؤلاء الأشقياء بلا رحمة، وألّا يذر منهم شقيًّا واحدًا.

أمسك النغل بعاهرة عارية، وألقاها عليّ! قهقه مخمورًا وقال مترنحًا:

"هيا أيها الشقي، أرنا كيف تتعامل مع المومسات".

ماذا يقصد؟ ماذا يعني بسؤاله هذا؟!

ولمّا لم أحرك ساكنًا، والعاهرة مستلقية فوقي تقهقه؛ جاء وأبعدها عني، وأجبرني على الوقوف، وشرع في نزع ملابسي. أمسكتُ بيده قائلًا:

"إليكَ عني، ماذا تفعل يا هذا؟!"

نظر إلي مشدوهًا، ثم نظر إلى باقي الصحبة متعجبًا من ردي! قال لي:

"انزع ثيابكَ وضاجعها؛ ماذا في ذلك؟!"

صرختُ في وجهه: "أجننتَ؟! كيف أنزع ثيابي أمامكم؟! حتى وإن كنتُ سأضاجعها، لن أفعل ذلك هنا".

عضّت المومس على شفتيها، واقتربَت مني تتلوّى، وعانقتني. أبعدتُها عني، فانطلقت ضحكتها تقززني، وانفجروا جميعًا ضاحكين.

عاود النغل حديثه إليّ:

"أتخجل من رؤيتنا لكَ؟! أم أن هناك شيء تخجل من رؤيتنا إياه؟!"

أشار بأصبعه بمعنى الصِغَر، وقهقهوا جميعًا لاستفزازي. بالكاد تماسكتُ، فإذ بهم قد التفوا جميعًا حولي وكتفوني بقوّة. أخذتُ أصرخ فيهم:

"دعوني يا أبناء العاهرات"

لكنهم لم يدعوني.

نزع النغل بنطالي، وقبل نزعه سروالي الداخلي؛ دخلَت مومس تتهادى، بدَت كحاكمة لهذه الأرض. توقفوا جميعهم عما انشغلوا به، وأطلقوا الصفافير طويلًا، دلالة على الإعجاب. قالت آمرةً: "دعوه"، فما كان منهم إلّا أن تركوني. اقتربَت مني، وأعادت بيديها ملابسي لمكانها مرة أخرى، وقالت وهي تعانقني:

"إنه لي وحدي، هيا أكملوا ما شرعتم في فعله"

علمتُ بعد ذلك أنّ العاهرة التي حفظَت ماء وجهي هي سيدة مومسات لندن! سحبَتني من يدي صاعدة إلى الطابق العلوي، حيث جناح كبار الزوار؟!

***

لا أدري أحيٌ أنا أم ميّت!

استفقتُ، لأجد نفسي بين أحضان الغانية التي اتخذتني لنفسها مؤخرًا! تبًا.. لقد كانت غيبوبتي السكرية أطول مما أعتقد، لكن غانيتي اعتنت بي قدر ما أمكنها! وهأنذا على قيد الحياة مرةً أخرى، بفضلها! لم تسرق مني شيئا، لم تتركني أموت ههنا! إن ما فعلَته من أجلي يثبت أنّي من أستحق نعت العهر لا هي!

لملمتُ ملابسي، وسترتُ عورتي وأخذتُ أرتدي باقي ثيابي وأنا أهرول خارج الماخور، عاقدًا عزمي على ألّا أقربه مرة أخرى ما حييتُ. لن أصاحب الأنغال والأوغاد والأنذال، ولن أضاجع المومسات، ولن أتحدث إلى القوادين. لن أحكي أفكاري لأي أحد أيًا كان، مهما كان وثيقًا رباط الصداقة بيننا، أو حتى أثق بأحد إلى حد بعيد، فالأفكار هن بنات الكاتب، وفقدانهن أسوأ فاجعة قد تصيبه على الإطلاق.

***

- لماذا لم تطلب قهوتكَ المعتادة؟

سألني البريطاني فأجبتُه:

- لن أحتسيها بعد الأمس، ولن أكتب عنها مجددًا.

- وما السبب؟

- لكثرة ما يفعله بها كل من أمسك القلم، وكأنه لا يوجد مشروب غيرها -قهوة الصباح وصوت فيروز- تلك العبارة تكررت أكثر من الكانات والكاآت، أكثر حتى من علامات الترقيم؟! فلتذهب القهوة إلى الجحيم، وليذهبوا هم إلى... إلى مكان ليس به قهوة.

لا تأكل التفاح، لا تطرد الغراب، لا تستفز الذئب، لا تطعم الكلب الحالك، لا تقرب الحيّة، لا تشهر الفأس في وجه أخيك، لا تنسَ تعاليم الأسلاف.

لا تكترث بأولئك الحمقى الذين لا يمكنهم تمييز النور الذهبي المشعّ القادم من السماء البعيدة حتى لو كان فوق رؤوسهم، النور فوق كل شيء، يسطع فيغمرنا بالدفء.

أغلق المذكرة وهو يقول:

- ماذا تقصد بذلك سيدي؟

أشعلتُ لفافة تبغ وأخذتُ أشرح له:

أما الفقرة الأولى فالمقصود بـ "لا تأكل التفاح" أن لا تقع في غواية البشر، فتفقد جنتك.

و"لا تطرد الغراب".. المعلم الأقدم هو مبعوث المبجّل، وعينه التي بها يرى العوالم التسعة، ومنه يعرف أخبارها، فتعلم ولا تنفر ممن يعلمك.

"لا تستفز الذئب" لأنّه تجسيد لقوّة المبجّل، ومَن يستطيع مجابهته؟!، أي أحمق أنت لو تحديت من لا قبل لك بقوته!

"لا تطعم الكلب الحالِك"، لأنّ "مبعوث آنوب" يتجسد على هيئته، وقد يأخذ روحكَ ويرسلها للعالم الآخَر دون أن تستعدّ لذلك. كعاقل عليك ألّا تختار الاقتراب ممن يرسلك للتهلكة.

"لا تقرب الحيّة"، لأنها ابنة وإحدى صور "ثعبان الكون"، الرهيب الذي يقتل المبجّل "ثور" في "راغناروك" معركة النهاية. ومن ينخدع بالنعومة يجلب إلى نفسه الفناء.

وما تبقى لا يحتاج إلى تفسير.

توقفت لحظة أراقب انبهاره، فشعرت اتجاهه بالشفقة. أكملت:

- وأما الفقرة الثانية، فهي إحدى مقولات أستاذ الأدب الإنجليزي، الذي كان له عظيم الأثر في توجّهاتي المعرفية. قالها، وكتبتُها خلفه عند افتتاحية محاضرته عن آراء نقاد القرن التاسع عشر، والمشككين في حقيقة وجود شخصية "شكسبير"، واتفق معهم في الكثير من التساؤلات المنطقية، واختتم قوله بالتساؤل المهم: "كيف لابن صانع القفافيز، الذي بدأ كخادمٍ وضيع في المسرح، أن يكتب كل تلك الأعمال الموغلة في تفاصيل حياة الأثرياء وذوي المكانة، والتي لا يستطيع إلّا نبيل من بينهم، وذو تعليم رفيع وموهبة فذة كتابتها؟!

لم أتمالك نفسي ولم أستطع الصمت. رفعتُ يدي، فأشار لي أن أقف. قمتُ وقلتُ: "سيدي البروفيسور، يمكن لصانع القفافيز أن يفعل أي شيء في الدنيا لتعليم ابنه، وتوفير كل احتياجاته حتى لا يصبح أقل من أقرانه أبناء الأثرياء. ربما هو يرتدي ثيابه الرثة، ليوفر لابنه الأنيق من الثياب.

صانع القفافيز قد يكون على استعداد تام لحرمان نفسه من القوت، ومعاناة الجوع والعطش، بل وقطع نتفًا من لحمه ليقدمها لابنه بكل رضا، حتى لا يشعر بالجوع لحظة".

ابتسم ابتسامة راضية قائلًا: "لكَ كل الحق فيما تقول، فابن صانع القفافيز والإسكافي مصلح الأحذية المعدم يقف أمامكم الآن، يُلقي محاضرة في الأدب الإنجليزي. لم يقصّر نهائيًا، ولم يتردد لحظة في بذل صحته كأب. اجلس يا بني وافتخر بمهنته، كما أفتخرُ دومًا، وأبدًا لن أُنكرها. تمسّك بالأمل، لا تضع حدًا لطموحكَ، ولا تستسلم مهما كلّفكَ الأمر. أما عن "شكسبير"، فهو موجود بالفعل رغم المشككين.

عدّل من وضع نظارته الطبية، وقال وهو يلملم أوراقه: سأخبركم بأكثر الاقتباسات المحببة إليّ، ورجاءً دوّنوها في مذكراتكم كما أفعل، يقول "كافكا": "على الكِتاب أن يكون كالفأس، الذي يضرب البحر المتجمد فينا"... انتهَت محاضرة اليوم أعزائي، دمتم بخير، إلى اللقاء".

***

يقول البروفيسور: "أتحمّلك ثلاثًا وبعدها تحمّل حذائي".

ومن أقواله التي دوّنتُها في مذكرتي وأطالعها كل حين:

"لسنا بدعاة ولا قضاة، نحن في زمن اجتمعت فيه كل موبقات الأقوام السابقة، وخسف الأرض بنا ليس كافيًا. نحن قلة يا أعزائي، ولأن عصر المعجزات ولّى، ستُهزم القِلّة. اصمت إذا أردتَ أن تنجو، لن يتغيّر شيء. اقتربَت النهاية، فنحن أشرّ البرايا".

كل ما قاله، وكل ما قرأتُه في الأدب الإنجليزي كان فسيفساء مهيأة لتشكيل شخصية "هوبنز"، فرحّب عقلي الباطن بحفظها ثم استدعائها بعد ذلك عند اللزوم. لم يكن وجوده حقيقيًا يومًا، منذ البداية وهو هنا (أشرتُ إلى رأسي) وإلى الآن.

ابتسم فسألتُه:

- ماذا لو فتحنا رأس كاتب؟ ما الشيء الذي سنجده بداخلها؟

ضيّق حدقتيه مجيبًا:

- الدماغ.

- أحمق.. إجابة تقليدية سخيفة.

- ماذا سنجد إذن؟

- سنجد فسيفسائيات متعدّدَة من كل الأشكال والألوان والأحجام.. كل ما قرأه في حياته يتجمّع آخذًا هيئة الدماغ. ولأنّ الكاتب كيان غاضب، سافر في معظم الأحيان، لذا؛ دماغه أكثر الأشياء تعقيدًا وعجائبية.. تعيسة مَن تُغرم بكاتب، رفيقها الأرق والوتّر، وأنيسها الهم والغم، وستصاب بالسكري دون شك. تلك المرأة التي تحتوي كاتب لم تُخلق بعد.

أطلق ضحكة عالية وهو يغلق مفكرته، واتكأ على الكرسي ونظر إليّ بإعجابٍ بيّن.

- الآن تغمرني السعادة حتى وإن كان الحزن يحتلّ عيني.. منذ اتخاذي القرار باعتزال الناس والفرحة تعانق جوارحي. آتت العزلة أُكلها، وسقطَت الأقنعة التي توقعتُ قبح ما تخفي.. جرّب العزلة أيها البريطاني.. أثق بأنكَ ستأتي يومًا وتشكرني على نصيحتي.. وبحرارة.

22

اليوم السابع والأربعون

صباحها ليس كأي صباح. تنثر البهجة في كل مكان تقترب منه، كلما تطايرت خصلاتها الذهبية على الوجه الإنجليزي ورديّ الخدين المزيّن بالنمش، الوحيد الذي أسرني. في دوامة تلك العينين الواسعتين ذات الحجرين الرماديين تكمن راحتي، ومن تلكما الشفتين الجمريتين المقلوبتين يجب أن يُمتص الرحيق. أمام ذلك الجسد المنعّم الفتّان بلوريّ الساقين أسطوري النكهة على الفتنة أن تركع. سكسونية الهوية كانت، أو لندنية المسكن، أو نوتنغهامية المولد لا يهم، هي فتاتي ومليكتي. آه منك إليزابيث.

كما اعتادت فور دخولها، قامت بالطقوس اليومية المتكررة، ثم جلست على الكرسي قبالتي واضعة ساقها على الأخرى، لتمسك بمفكرتي وتقرأ كل جديد.

وجديد اليوم ليس كأي جديد، هو....

***

كريغوري سويسبيرغ (Kriegöry Sweisberg):

مؤلف قصصي وروائي وكاتب مسرحي نرويجي- سويدي، ولد في الرابع والعشرين من نيسان عام (1924) في مدينة "غوتنبورغ" التابعة لمقاطعة "فستريوتلاند" في الساحل الغربي جنوب السويد. والده نرويجي يُدعى "إدڤارد يوهان سويسبيرغ" يعمل في الطباعة، وأمه سويدية لم تعمل اسمها "فريدا هاغيروپ". تزَكَت الأسرة السويد وانتقلَت إلى النرويج وهو في السابعة من

عمره، ليستقر بهم المقام في مدينة "ساربسبورغ" جنوب شرق النرويج التابعة لمقاطعة "أوستفولد"، حتى أنهى "كريغوري" دراسته الجامعية في "كلية الإنسانيات" بجامعة أوسلو العريقة المرموقة بين جامعات الدول الإسكندنافية.

"هنريك إبسن" أبو المسرح الحديث كان مثله الأعلى، وتأثر كذلك بالسويدي "أوغوست ستريندبرغ" رائد الاتجاه النفسي، والروسي "أنطون تشيخوف" أفضل من كتب القصة القصيرة على مر التاريخ، كما تأثر اجتماعيًا بالمهاجرين العرب والأتراك والألبان الذين كانوا يمثلون الأقلية المسلمة في النرويج. إنه رجلٌ لم يحبس رؤاه في عرق أو دين.

أشهر مسرحياته "بالعكس" عنوانها هو آخر كلمة قالها مثله الأعلى "إبسن"، حكى فيها عن معارض يبحث عن الحرية.. ومسرحية "أنا من الـڤـايكنغ" الهزلية دارت كلها حول مجذوب يعتقد نفسه في عصر الـڤايكنغ، ومسرحية "القديس أولاف" التاريخية تحدثت عن أول ملك مسيحي للنرويج.

كانت أفكاره تثور أحيانا في تكثيف يليق بنصوص قصيرة، فكتب الراعي والجِمال، لندن الصُغرى، أرواح نهر غوتا، في صفوف مدرسة تانك، اسكندنافيا، كنتُ صغيرًا في غوتنبورغ، نقوشات على جدران ألتا، قطار الركاب السريع، ليس كمثله حُبّ. وأحيانًا أخرى يسترسل معجبًا باصطحاب قارئه في الرحلة الطويلة، فكتب "معركة هافرسفيورد"، "الأرشيدوق"، عبر التاريخ، و"الليل في أوسلو"، "الحب في أرض الضباب" الرومانسيتين، عبر مشاعر القلوب.

وحين أتى عام (1994)، انتقل "كريغوري" إلى "لندن"، ثم لم يكتب هناك حرفًا واحدًا.. ثم فجأة اختفى تمامًا، ولا يعرف أحد حتى يومنا هذا أهو على قيد الحياة أم لا.

نصيحة، لا تبحثوا عنه فأنا وحدي من يعلم عنه كل شيء.

***

أغلقَت المفكرة متعجبّة:

- ماذا تقصد بذلك؟

- هو موجود هنا.

أشرتُ إلى رأسي، فتعجّبَت:

- كيف جاءتكَ هذه الأفكار؟

- عانيتُ الأمرّين قبل حصولي على الدكتوراه. صدقَت سيدتي البروفيسورة حين أخبرتنا: "يقول كافكا: سوف أكتب رغم كل شيء، سوف أكتب على أي حال، إنّه كفاحي من أجل المحافظة على الذات". قالت لي بصفة خاصة: "الكتابة هي مستقبلكَ، فلا تكترث بالتعقيدات الأكاديمية الشيزوفرينيّة المُركّبَة، وامضِ قُدُما".

عملتُ بنصيحتها. كانت مأساة حصولي على الدكتوراه مسألة وقت، بعد كرهي لشكسبير والأدب الإنجليزي على حد سواء. أخذتُ أوسّع مداركي، ونوّعتُ في قراءاتي، استهوتني الأساطير الشمالية أكثر من أي شيء آخر، وقرأتُ كمًا لا بأس به من الأدب الاسكندنافي، وبذلك تكوّنَت في دماغي فسيفساء شخصية "كريغ"، وخرجَت على الأوراق بطريقة أرضتني نسبيًا.

هزّت رأسها، ورسمَت ابتسامة جانبية على وجهها. نظرَت إلى الساعة، وقامت دون تردد إلى المنضدة وجهّزَت الأمبول، ثم عادت وأمسكت بذراعي وحقنَتني. نظرتُ إلى الحوض، لأجد فيه السمكتين الذهبيتيْن فقط! سألتُها:

- أين السمكتان الكبيرتان؟

- أية سمكتين؟

- اللتان كانتا بالحوض؟

- هما هاتان السمكتان منذ البداية!

- حقًا؟!

أعطتني ظهرها وهي تقول:

- نومًا هانئًا.

أطفأَت الضوء، وخرجَت دون أن تلتفت إليّ!

23

اليوم الثامن والأربعون

منتصف الليل

لم يفشل المُبَجَّل "ثُور" في حياته إلّا ثلاث مرات فقط: في معقل "أوتغارد" شرب الخمر ثلاث مرات من القرن، وذلك خلال مسابقة للشرب، ولكنّه فشل في إكمال القرن الأخير. المرة الثانية لم يستطع رفع القط الجالس أمام النار، لكنه استطاع تحريك أحد مخالبه، والقط لم يتزحزح قيد أنملة. أمّا المرة الثالثة والعجيبة؛ لم يستطع قتل عجوز طاعنة شمطاء أصرّت عامدة على استفزازه فأثارت غضبه.

عرِفَ بعد ذلك أنّ القرن كان متصلًا بالبحر، وأنّ القطّ كان ثعبان الكون -أحد أبناء "لوكي"- متنكّرًا، وأمّا العجوز الشمطاء فكانت الشيخوخة نفسها متجسّدة في صورة آدمية.

وأنا كذلك، فشلتُ في حياتي ثلاث مرات. لم أعِ معنى الأُبُوّة إلّا بفقدان أبي، صانع القفافيز الذي ظلّ يعمل ليل نهار، حتى يستطيع أن يجعل ابنه الوحيد يكمل تعليمه دون أن يشعر بأنّه أقلّ من أقرانه. هو لم يعتبر كون أقراني ينعتونني برأس وحيد القرن، ثم "رأس الكركدن" بعد ذلك إلا هزل صغار لا إهانة فيه. لقد ورثتُ حجم رأسي عن أبي، الذي ورثه عن أبيه، ولذا لم يكن يرى فيه ما يقلل ولا يزيد، وإنما هو خِلقة كغيرها من خِلق الناس. ذات مرة، رفضتُ النزول مع أبي إلى دكانه. قام من مكانه، واقترب مني جدًا، حتى ظننت أنه سيصفعني، لكنه أشهر في وجهي لباسه الممزق، فبالكاد يستر عورتَه، ومن بين أسنانه حذرني من أن أستكبر على مهنته التي منها يصنعنا تلاميذ المدرسة المحترمين.

للأسف، لم أشعر بما في كلامه.. فهمت معناه، ولكنني لم أشعر به. لم أكترث بلباس أبي الممزق أو باقي ملابسه الطاعنة في القدم، إلّا بعد وفاته. وقتها فقط، عرفت أنه كان لي أبًا وأمًا منذ ماتت أمي وأنا في الثالثة جراء المرض، الذي لم يملك أبي ثمن دوائه. أكملتُ العمل في دكانه حين صرت وحيدًا واقعًا وليس اسمًا، وظللت أفتحه حتى أنهيتُ دراستي الجامعية وعُيّنتُ معيدًا في قسم الأدب الإنجليزي. كنت أداوم على فتحه والمذاكرة فيه، على نفس الإضاءة الضعيفة التي كان يعمل أبي تحتها دومًا. هناك أنهيتُ الكثير من أعمالي، حتى انتقلتُ إلى مدينة أخرى.

والمرة الثانية، لم أعرف قيمة زوجتي ومقدار حبي لها، إلّا بعدما هجرَتني بسبب أفعالي المخزية، وعربدتي غير المتناهية. لسنتين كاملتين، لم أستفق دقيقة. أسكر طوال الليل، وأنام طوال النهار، فكيف لها ألّا تذرني فردًا؟! كيف لها أن تتحمّل تلك الرائحة النتنة التي تفوح مني؟ كيف تتحمّل استلقاء ذلك الجسد العطن إلى جوارها؟! إلى مَن تتحدث؟ إلى حوائط المنزل؟! رأيتها ذات مرة تتحدث إلى حوض السمك -هديتي لها وقت الزواج- الذي أطاحَت به قبل ذهابها! تركتني وحيدًا، ولها كل الحق في ذلك.

أمّا المرّة الثالثة، فشلتُ فشلًا ذريعًا في أن أكون والدًا يُفتخر به. فشلتُ في احتواء قرّة عيني ووحيدي، وانشغلتُ بملذّات الدنيا، وأصابني هوس جمع المال، ومصاحبة النساء، واحتساء الخمر، والسهر. ظَلّ يرسل إليّ يرجوني أن أهتم به ولو قليلًا.. أعتبره على الأقل أحد السيناريوهات التي أكتبها للسينما. لكم طلب مني أن أعانقه، فصددته، وما عانقته عناقًا واحدًا، حتى خطفه مني المرض. لم أشعر أنّ لي ولدًا إلّا بعد مرضه. تلك اللحظات القاسية قبل سنتين، حين دخل وحيدي في حالة انتكاسة قوية، ولم تنجح صدمات الكهرباء في تنشيط أجهزته، وفقدَت المحاليل القدرة على التسرب إلى جسمه، ولفظ كل هذه الدنيا بما فيها أنا. من خلف الزجاج العازل، تابعتُه بعينين متحجرتين نضب دمعهما، وقلب لعين مظلم يصرخ من الندم، وروح معذبة تستحق أقسى درجات العذاب. متأخرًا جدًا.. جدًا شعرتُ بالأبوّة! فقط عند احتضار ولدي! ثلاث ساعات وخمس دقائق قبل وفاته..! ساعة عند مولده، وأنا أحمله بين ذراعي هي كل ما منحته من أبوَّة، وما استمتعت به من بنوَّته، ثم أخذتني منه عربدتي والهرولة خلف مغريات الحياة.

نظرتُ في ساعتي، فإذ بالطبيب يخرج عند التاسعة وخمس دقائق، لينظر في وجوهنا قائلًا: "فعلنا كل ما بوسعنا، لكنها النهاية". أنّى لي التكفير عن ذلك الذنب؟ كيف لي أن أحقق أمنيته أن

أعانقه العناق الذي طالما تمنّاه؟! انهرت أعانقه عند دفنه، لكن بم ينفعه ما بعد الموت من مشاعر الأحياء؟! أيّ أبٍ أنا؟!

مُذّاك الوقت حتى قبل شهر ونصف وأنا في معزل عن الناس، لا رفيق لي غير الأرق الليلي الدائم، والخمر التي بتجرُّعها لم أنسَ ما أصابني، ولن تعوّضني عمّن تركني. لا يسعني إلّا الاعتراف بذلك، أخطأتُ وندمتُ، أينفع الندم؟

لماذا لم تأتِ إليزابيث اليوم؟! يا ترى، أهي بخير؟

24

اليوم التاسع والأربعون

الاقتباسات التي أثّرت في حياتي لا تخلو منها مفكّرتي. أنسبها قول "ألبير كامو": "تعرفون اسمي ولا تعرفون قصتي.. تعرفون ماذا فعلتُ، ولا تعرفون الظروف التي مررتُ بها. فتوقفوا عن الحكم عليّ وانشغلوا بأنفسكم".

***

في تلك الرقعة الظلماء، ذلك الثقب الحالك المحبوس يسمّونه الرقّاص، وذلك لأنّهم لا يعرفون الفرق بين الرقّاص والرّقّاص، الرّقّاص يا سادة، مشنوقٌ وطال احتضاره، فلم يُحكموا وثاق عنقه كما يجب، تائهٌ بين الرموز والأرقام والدقّات، مصيره متعلقٌ بمصير عقربَيْن، لا يتحكّمان به، ولا يتحكّم بهما، مسئولٌ عن الوقت ولا ذنب له، وأبدًا لا يُخلِف ميقاته، مؤرجحٌ ذات اليمين وذات الشمال، ولن يوقفه إلّا الموت. إنه البندول يا سادة، والبندول أنا.

عربيد، شغوف بالنساء، ملول أتنقّل من تلك إلى أخرى، ومن أخرى إلى أخريات. بعدما لاقَت كتاباتي نجاحات خياليّة، قفزَت بي فجأة إلى سلّم الأثرياء، فالتفّت حول عنقي متع الحياة، دنَت مني النساء عامدات، فاستقبلتُهنّ بترحاب المشتهي. لم تهنأ زوجتي بالعيش معي، وذهبَت الخمر بعقلي. خسرتُ عملي وأُسرتي.. أهملتُ قرينتي ووحيدي، ولم يستمر زهوي، فانفضّت عاهراتي من حولي، وحتى أصدقائي تركوني. هويتُ من السلم فجأة كما قفزتُ إليه فجأة. وحيدي كان في الكثير من الأحيان يشتاق لعناقي، فمنعتُه متأففًا، وأبعدتُه عني. كَبُر، واعتاد على ذلك، وتكيّف على العيش من دون أب، كما اعتدتُ على العيش دون ابن أو زوجة، أو حتى قلب.

واحدٌ فقط لم يتخلَّ عني في محنتي. أعز أصدقائي، ومخرج معظم أفلامي، أصرّ على التكفّل بكل المصاريف اللازمة لعلاجي. وحتى لا تكون فضيحة في بلادي، صمم على السفر بي للخارج للعلاج، حفاظًا على صورة الكاتب الكبير أمام الجماهير، وحرصًا على عدم تسرب الخبر إلى الصحافة. وبعد محاولات عديدة لإقناعي، وافقتُ أخيرًا، حزمتُ الحقائب إلى عاصمة الضباب.

أخذتُ مفكرتي معي، وقلمي المفضل، وحقيبة أخرى مليئة بالملابس، ولوحة "رأس الكركدن" التي رسمَتها زوجتي وكانت السبب في زواجنا. تركَتها معلقة في مكتبي، حتى بعدما هجرتني، لها كل الحق في ذلك. بعد صدمة التاسعة وخمس دقائق، تحوّلتُ إلى كائن آخر، أشد إقبالًا على الخمر والسُكر، همجي، مقزز، لا يطاق. وطيلة ستة وعشرين يومًا، لم أستجب لأية أدوية. كنت كلما أرادوا حقني بالنيوريل، أنهال عليهم باللكمات، ويضطر الممرضون لتكبيلي بقوة، ليستطيع الطبيب حقني. حتى أتاني طيفها في اليوم السابع والعشرين، فاستسلمتُ، عاقدًا العزم على العلاج والخروج مرة أخرى، لأذهب إليها صاغرًا أتوسل أن تسامحني.

لقد تغيّرتُ بالفعل، ولولاها ما تغيّرتُ. هي أملي الوحيد الباقي، ذات الحجرين الرماديين. هي ملهمتي، ومولاتي، حبيبتي، وزوجتي، توأم روحي وأم فقيدي. سأرجوها أن نبدأ حياتنا من جديد، هي القادرة على إعادتي إلى الحياة مرة أخرى.

دق الباب بهدوء، وبهدوء أجبتُ:

- تفضل.

فتح الباب ودخل البريطاني! ابتسم، وعدّل من وضع نظارته. اقترب مني وهو يقول:

- كيف حالكَ الآن؟

سألتُه:

- كيف دخلتَ إلى هنا؟ ولماذا ترتدي زيّ الطبيب؟!

ابتسم وهو يقول:

- جئتُ لأراك لمرة أخيرة، قبل أن أوقّع على تقرير الخروج.

نظرتُ إلى الساعة.. لقد تجاوزَت الحادية عشر صباحًا. نظرتُ إلى المنضدة، لأجدها خالية من الحوض! أشرتُ نحوها وسألتُه:

- أين حوض السمك الذي كان على المنضدة؟

قطب جبينه متسائلًا:

- عن أي حوض تتحدث؟

- الحوض الذي أحضرَته إليزابيث.

- مَن إليزابيث؟

- إليزابيث.. من نوتنغهام.

- ومَن تكون؟

- الممرضة التي كانت تعتني بي من التاسعة إلى التاسعة.

تنهّد وابتسم:

- الدوام فقط ثماني ساعات، ولا يمكننا أن نخاطر بالزج بسيدة لحالة كحالتكَ. هم ثلاثة ممرضين أشداء كانوا يتناوبون على متابعتكَ. الآن، هل تعتقد أن بإمكانكَ العودة إلى الحياة الطبيعية مرة أخرى؟

ابتسمتُ وأنا أنظر إلى مفكرتي بجواري. نهضَ مبتسمًا، وقال بصوت خفيض:

- هناك شخص يريد لقاءكَ.

- من؟

رمز بعينه وهو يقول "استعد"، ثم خرج.

أطلّت برأسها، ودخلَت بهدوء واضعة حقيبة ملابس كبيرة على الأرض، خالية إلّا من غطاء كتّان، أمسكَت به ثم اتجهَت إلى النافذة. فتحَتها، فتسرّب الضوء إلى الغرفة، وسارت نحوي. شلّتني

المفاجأة! لم تنظر إليّ أو تحدثني.. تجاهلَتني تمامًا!

كذب حدسي. أنزَلَت اللوحة المعلّقة فوق رأسي برفق، وغلّفَتها بالغطاء، ووضعَتها بحرص في حقيبتها. التفتَت الحسناء إليّ، عاقدة يديها إلى صدرها. عادت ذات الحجرَين الرماديَيْن اللامعين.. عادت -زوجتي- قائلة:

- لنحزم حقائبنا أيها العربيد.

تمّت

الشرقية - ديسمبر 2018

شكر وتقدير

لله الحمد حمدًا كثيرًا على إنجاز هذا العمل وإنه ليسعدني أن أتقدم بجزيل الشكر لكل من ساندني لإتمامه

أحمد عوض- باهر بدوي- د. محمد نجيب عبدالله- أ. منتصر أمين- محمد سليم (سيما)- مروى عليّ الدين- إبراهيم أحمد عيسى- م. محمد علي إبراهيم- م. أحمد القرملاوي- د. منى ماهر- د. رانيا رشاد- إيهاب مصطفى- د. نانسي إبراهيم- شروق رأفت- م. حنان- د. شيماء علي- أ. محمد محمد يوسف- م. محمد محمود سعيد- عبدالله فهيم نصحي- حكيم المصري- ك. محمد كامل- رشا ماهر- عصام عبد المعطي- وعمر محمد فرج- محمود الشبراوي- أحمد عبدالمقصود- سارة إمام.

وأخصّ بالشكر مَن ساندتني ووجّهتني وعلّمتني د. إيمان الدواخلي.

وأتقدم بخالص العرفان لمن حفّزني وأخذَ بيدي للاستمرار أخي الأكبر/ شريف الليثي.

وواجبي يحتّم عليّ أن أتقدم بالامتنان لأسرتي (زوجتي وصغيرَي) الذين شاركوني تحمّل عناء طريقي.

كما أتقدّم بشكر خاص

محمد السيد أبو ريان- أ. هدى يوسف أبو زيد- نرمين عيّاد- رشا عبد الله

محمد آدم

نبذة عن الكاتب

محمد آدم

- كاتب مصري وباحث في مرحلة الماچستير.
- من مواليد (1984) محافظة الشرقية.
- حاصل على دبلوم الدراسات الآسيوية- قسم دراسات وبحوث العلوم الاجتماعية وبحوث المجتمع والإنسان.
- قدم العديد من العروض المسرحية والغنائية بالثقافة الجماهيرية.

الأعمال الأدبية:

1	رواية: الطريق إلى السيدة العجوز	دار تويا للنشر والتوزيع	2016
2	رواية: رأس الكركدن	دار تويا للنشر والتوزيع	2018

الجـوائـز:

1	المركز الأول في التمثيل	وزارة الثقافة	2002
2	المركز الأول في الغناء	وزارة الشباب والرياضة	2002

3	المركز الأول في الغناء	وزارة التعليم العالي	2010
4	المركز الأول في التمثيل	مهرجان سمنود المسرحي	2016
5	المركز الثاني في التمثيل	مهرجان ميت غمر المسرحي	2016

الأعمال المسرحية والغنائية التي شارك بها:

1	طوق النجاة	وزارة التربية والتعليم	1999
2	6 في عين العدو	وزارة التربية والتعليم	2000
3	في قطرة ماء	نوادي المسرح	2000
4	سارة الفلسطينية	وزارة التربية والتعليم	2001
5	الكتاب	الثقافة الجماهيرية	2002
6	خاتم الملك	الثقافة الجماهيرية	2003
7	الضرب في الميت	قطاع خاص	2003
8	اللي شالوا الهمزة	نوادي المسرح	2004
9	طاقة شوف	الثقافة الجماهيرية	2004
10	أزمة شرف	جامعة الزقازيق	2005
11	كلنا عايزين صورة	نوادي المسرح	2005
12	هل كان العشاء دسمًا أيّتها الأخت الطيبة	نوادي المسرح	2005
13	وقائع عام الطاعون	الثقافة الجماهيرية	2005
14	قوم يا مصري	الثقافة الجماهيرية	2006
15	وش الديب	الثقافة الجماهيرية	2007
16	ملوك الشر	نوادي المسرح	2007
17	الإسكافي ملكًا	الثقافة الجماهيرية	2008
18	الحوائط	نوادي المسرح	2008
19	النعام	الثقافة الجماهيرية	2009
20	أصل الحكاية	مسرح مستقل	2011
21	ليلة يناير	الثقافة الجماهيرية	2011
22	مركب بلا صياد	الثقافة الجماهيرية	2013
23	مآذن المحروسة	الثقافة الجماهيرية	2014
24	حيضان الدم	الثقافة الجماهيرية	2015
25	لستَ أنتَ جارا	مسرح مستقل	2016

للتواصل مع الكاتب عبر الصفحة:

محمد آدم / Mohammad Adam